وسم على أديم الزمن

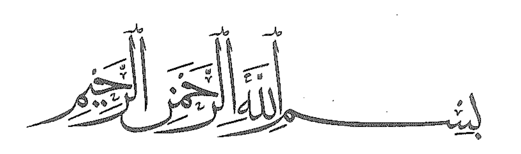
"لمحات من الذكريات"

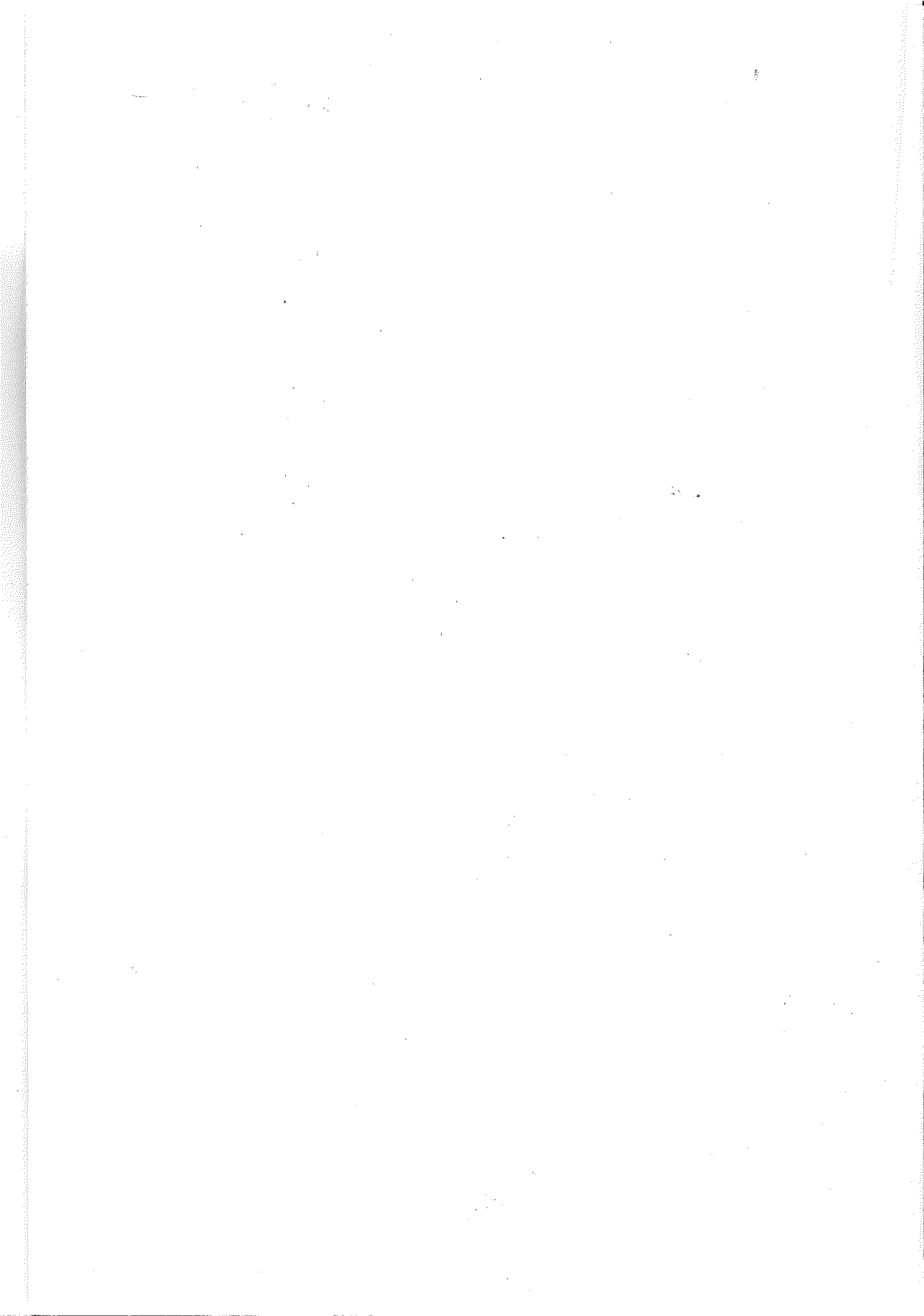


عبدالعزيز بن عبد الله الخويطر

الجزء الأول

الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م





وسم على أديم الزمن

«لمحات من الذكريات»

الجزء الأول

تأليف

عبد العزيز بن عبد الله الخويطر

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

ⓒ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر ، ١٤٢٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الخويطر ، عبدالعزيز بن عبدالله

وسم على أديم الزمن (لمحات وذكريات)./ عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر - ط ٢ . - الرياض، ١٤٢٧هـ.

٤ مج.

٤١٠ ص، ١٦ × ٢٢,٥ سم

ردمك : ٩ - ٠٦١ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٧ - ٠٦٢ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (ج ١)

١ - الخويطر، عبدالعزيز بن عبدالله - مذكرات أ - العنوان

ديوي ٨١٨,٠٣٩٥٣١ ١٤٢٧/٣٧٣٣

رقم الإيداع : ١٤٢٧/٣٧٣٣

ردمك : ٩ - ٠٦١ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (مجموعة)

٧ - ٠٦٢ - ٥٦ - ٩٩٦٠ (ج ١)

الطبعة الثانية

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

سبب كتابة المذكرات

طالما تمنيت أن والدي كتب سيرة حياته، وذكر فيها ما يعرفه عن آبائه وأجداده، وأصول الأسرة وفروعها، وما مرت به من حركة واستقرار، وهجرة وتوطن، وشد وترحال وتنقل، وبيّن ما توصل إليه عن وسائل معيشتهم في بداوتهم وحضارتهم، وهو دأب قبائل نجد في السنين الماضية. هم بدو رحل، يتبعون مواقع الكلأ، وسقوط الأمطار، وتجمعهم الموارد وقت الصيف بعد أن يصوح النَبْت، وتجف الغدران.

وقد يغلب فخذ من قبيلة على مورد يكون موعد تجمعهم كل عام، فيكثرون حوله، ويبدؤون الاستقرار

عليه، ويكون لهم نواة تحضّر وسكن، يتبلور تحت حكم شيخ الفخذ أو العشيرة أو القبيلة، إلى نظام مصغر لبلدة: بيوت وطرق ضيقة، وبيوت متراصة، يسهل بناء سور عليها، يتحصن أهلها داخلها وقت الحاجة، وما أكثر ما يحتاجون إلى الاحتماء، في وسط عادات صحراء، ساكنها مُغِير أو مُغَار عليه. ثم تتشكل دويلة فيها حاكم ومحكوم، ولاجئ ومجاور، وتاجر، وصاحب مهنة، وإمام مسجد، ومؤذّن ومُزارع، وصاحب دكان، وخادم ومخدوم، وفارس.. إلى آخر الصورة المعروفة لنا أهلَ الجزيرة العربية.

هناك عاطفة مضيئة زرعها الله في الإنسان هي حبه لوطنه، وحبه لأهله وأسرته، حبه لجيرته، حبه لأصهاره وأصهار أصهاره؛ ولا تتم سعادته إلا

بمعرفته التامة بأمورهم الحاضرة والماضية، ولعل شغفه بالماضي أقوى من شغفه بالحاضر، لأنه يرى بعض الحاضر، ويكمل ما نقص منه بالتصور، أو بالأمل في أن يعثر على ما يكمله، أما الماضي فيحفّه غموض يشحذ غريزة حب الاستطلاع، وتغلفه نزعة الإصرار على كشف ما غطاؤه يحتاج إلى جهد لنزعه، ومعرفة ما تحته، أو ما بداخله.

لهذا تمنيت اليوم أمنية أعرف أنه من المستحيل أن أصل إلى تحقيقها، تمنيت أنّ جدّي وأبي أخبراني عن أسرتي بالتفصيل، أو تركا أثراً مكتوباً، أما عدم إخبارهم لي فقد حال اليوم موتهم دون تداركي لما فات منه، أما عدم حصولي على الأخبار في حياتهما، أو حياة عمي، وهو والد ثانٍ لي، فحال دون بعضه أني

كنت صغيراً ليس بإمكاني فهم ما قد يحاولون إفهامي إياه، وهم أيضاً لديهم من شواغل طلب المعيشة ما يجعلهم في شغل عن هذه النزهة الاجتماعية الأسرية. وهكذا سوف تبقى الأمنية أمنية، وسأبقى وإخوتي وأبنائي في ظلام دامس تجاه تاريخ أجدادنا، وحياتهم، ونشأة كل منهم، وما مرّ بهم، إلا من شمعة تضيء هنا أو هناك، تهدي السائر إلى معرفة بداية الأسرة، وعلاقتها بالقبيلة، ومكان القبيلة، وزمن القبيلة، وهو أمر قد يسدّ الرمق، ويبل الريق، ويسكت الجوع والنهم، ولكنه قليل، لمن أمانيه طموحه.

لهذا حرصت، منذ أن أصبحت قادراً على أن أدوّن عن حياتهم شذرات سلمت من جور الزمن، ومن نسيان الأشخاص، أو عدم اهتمامهم. كذلك

حرصت على أن لا أقع فيما وقعوا فيه، وأنما أدوِّن، ما أمكنني ذلك، الأمر الصغير والكبير، ليعرف أبنائي عني ما قد يودون معرفته بالتفصيل، وليعرفوا أباهم في صغره، وما مرّ به من فرح وترح، ومن تعب وراحة، وليعرفوا ما حباه الله به من حسنات، وما قد يكون لحقه من سيئات، وليعرفوا تفكيره في كل مرحلة من مراحل حياته، عمقه أو ضحالته، وليأخذوا من كل هذا صورة واضحة عن زمنه، وسير الناس فيه، وفي هذا مساهمة في رسم صورة لوطننا وللمجتمع فيه.

دوّنت سيرة حياتي بتفصيل سوف يتقبله أبنائي، وقد تركت للقلم حرية الحديث فيه، فجرى القول رهواً، وريحه رخاءً، وقد وصلت حتى الآن إلى عام ١٤١٠هـ، وَزَاحَمَتْ كتبي، وعملي، هذه المذكرات،

فأرجأت الباقي إلى حين يتسع وقتي لهذا، إذا مدّ الله بالعمر.

وقد كثر إلحاح بعض الإخوان عليّ في إخراج هذه المذكرات، خاصة بعد أن أدركوا، وبعضهم معاصر لطفولتي، أن بعض الأفكار قد تسربت بسرّية إلى بعض ما كتبت في كتابي: «**أي بني**»، وفي كتاب «**إطلالة على التراث**»، على الرغم من أني لم أبح بأن المقصود هو أنا، أو والدي، أو أخي، أو صديقي فلان، أو زميلي علاّن.

ومن بين ما أبدوه في إقناعي أن هذه تؤرّخ لجانب من حياتنا في حقبة لم تعد معروفة للشباب اليوم، وقد تفيد مادةً للمقارنة في المستقبل، فاستجبت ملتزماً بأن لا أشق على القارئ ببعض التفاصيل مثل ذكر

اسماء كل اقربائي أو قريباتي، وذكر تداخل الأسر قرابة ورحماً، وقد أخفيت أيضاً بعض الأسماء، وإن كنت أبقيت الحوادث، لئلا أذكر ما قد يرى أصحابها أو أبناؤهم عدم مناسبة ذكرها، وبهذا الذي فعلت التقيت مع طلب أصدقائي في منتصف الطريق، بعض مذكرات لا مذكرات كاملة.

هناك فكرة أضحت غالبة في أذهان كثير من الناس عن المذكرات، ومن يكتبونها، وهي أنها تأتي متكلفة، ولا تسير سيراً طبعياً، وإنما يعمد صاحبها إلى طلاء حياته بطلاء زاهٍ، ويزخرفها بزخرف حبّره وهو جالس على كرسي الكتابة، وقد يبعده هذا عن أن تكون صورة صادقة لحياته، فيعمد إلى ذكر ما يرفع قدره مما حدث في حياته، ويخفي ما فيه نقص عليها،

مما لم يسلم منه البشر، وقد يُكبّر ما هو صغير ويُصغّر ما هو كبير، ويأتي بها في الهامش واضحاً، وما في المتن مخفيّاً يطل على استحياء، ويُلبس العيب ثوباً قشيباً، بِخَبرٍ يزيده في أوله، أو آخره، ويعمد إلى التدليس مثل التاجر الذي يُغيّر تاريخ بضاعة انتهت مدتها بإلصاق تاريخ جديد، وتُظهر مذكراته في النهاية أنه مخلوق فوق مستوى البشر، خالٍ من العيوب، وليس في أفعاله شوائب، كأنه محاط منذ طفولته بمستشارين خبراء، يبعدونه عن الزلل، ويقربونه من الجادة المستقيمة.

مثل هذه المذكرات تضر ولا تنفع، تضرّ صاحبها لأنها مخالفة للحقيقة، ويفضحها ما يعارضها من حقائق ظهرت في الماضي، أو قد تظهر فيما بعد؛ هذا إذا لم يتبين فيها ومنها تناقض لا يخفى على ذي اللب،

وذي الفطنة ممن يقرأ وعقله معه، وفكره نوره يشع أمامه، يُعرف به الزائف من الصحيح، والسقيم من السليم.

ومثل هذه المذكرات تضر قارئها، وأول من تضر من قرّائها أبناء صاحب المذكرات وأقرباءه، الذين سوف تقتل هذه الحقائق الزائفة فيهم غريزة الطموح بيأسهم من أن أي جهد يبذلونه في حياتهم لن يفيدهم، لأنهم لن يصلوا إلى ما وصل إليه مُوَرِّثهم؛ وقتل الطموح بالتعمد أو بالجهل، جريمة لا تغتفر، وإذا كان لديهم بذرة طموح سابق فسوف تُقتل بسيف حاد في مهدها، وتتلاشى، وتذهب أدراج الرياح، ويبقى صاحبها في مكانه يجتر مجد مورثه الزائف.

وقد يصدق هذا في مجمله على كُتَّاب المذكرات

السياسية، والسياسة لها طبعها، ولكن هذه المذكرات لن يكون فيها من أمور السياسة شيء، لأن السياسة وأمورها في عصر كاتب هذه المذكرات موثقة بوثائق رسمية، هي أصدق من تقديره، وأقوى ذاكرةً من ذاكرته، ونحن اليوم في عصر المعلومات المدونة، فلا نحتاج أن نتكفف الأفراد لنعلم منهم أجواء السياسة مجملة أو مفصلة في زمننا.

سوف أحاول في هذه المذكرات، ما أسعفتني أوراقي ودفاتري، وما لديَّ من وثائق، وما أسعفتني به الذاكرة، أن أكون أميناً فيما أكتب، صادقاً فيما أنقل، واضحاً فيما أصوّر، لأن الحقيقة جميلة، ومن يخالفها فقد ترك الجميل إلى القبيح، ولي عنصر أَثَرة في هذا، لا أخفيه، وهو أني سوف أتمتع، قبل القارئ،

بذكرياتي كما كانت، وربما كانت متعتي بهذا أكثر من متعته، فليسمح لي بهذا، وليغفر لي أن أمشي أمامه، فأنا مستحق ذلك، لأن بعض ما سوف أذكره قد دفعت ثمنه سنين من عمري، أشابت الشعر، وأنهكت الجسم، وأضعفت الحواس، وكلٌّ يُغني على ليلاه، وذكرياتي هي ليلاي، والحمد لله على ما وهبني في حياتي، وهو أعلم بما منع، فله الحمد أولاً وآخراً.

وعلى هذا سوف لا أتحاشى ذكر جوانب النقص كما أعرفها، وسوف أبرزها إبرازاً عادلاً، أما الجوانب التي ليس فيها نقص، ولا تدخل حيز العيوب، فسوف تتكفل بإبراز نفسها، فتدخلي يحتاج مني إلى لجام، حتى لا تجمح بي لذتها، وتَخْتِلني، فتدخلني دون أن أعي في نطاق العاطفة، والعاطفة إذا لم تكن إبزاراً

ظلمت الفكر، فيتقاصر حظّه من التحكم في العمل، فيجئ خُداجاً.

سَيرى أبنائي وأحبائي ومن تهمهم الحقيقة رجلاً على حقيقته، وسيعرفون الأسباب التي أوصلته إلى ما وصل إليه من مزايا ونجاح، وسيرون المعوقات التي حالت دون نجاحه وتبريزه في أمر ما، أو حقبة ما.

وأعود مرة أخرى فأؤكد فائدة الحقيقة، والشرف الذي تأتي به لقائلها، والحريصِ عليها، فقولها يجلب احترام المرء لنفسه قبل احترام الآخرين له.

أما النهج في كتابة هذه المذكرات فسأحاول أن أسير فيها أكتب حسب التسلسل الزمني، إلا ما قد أغفل عنه في مكانه، ثم أتذكره فيها بعد، فسوف أدونه، محاولاً أن لا يكون في مكان ناءٍ. وسوف أعتمد فيها

أكتب على الذاكرة فيما يخص الحقبة المتقدمة، خاصة في مرحلة الصغر، وبالذات عن الأمور الشخصية، أو شبهها، ويأتي بعد ذلك ما سمعته ممن أثق بهم، رجالاً أو نساءً، أو ما وجدته مكتوباً مما يتضمن حقائق مباشرة، أو يشير إلى ما قد يفيد، أما ما أتى وافياً، مقارنة بما مرّ، فهو ما سبق أن دوّنته في وقته، وبطل هذا والأمين عليه والحافظ له، بعد الله، «مفكرات الجيب»، التي منذ بدأتها لم أتركها، وسوف يكشف ما فيها أهميتها، وما تأتي به من توثيق.

وقد بَدَأَتْ مفكرات الجيب في مرحلة دراستي الجامعية في مصر حيث توجد هذه المفكرات، ولم نكن نعرفها في مكة في ذاك الزمن، وقد يكون السبب أن وقت حاجتنا إليها في تلك الأيام هو وقت الحرب

العالمية الثانية، حيث شح بعض ما هو أمر رئيس، دع الأمور التي لا تعدّ من الأساسات حينئذ. وقد امتدت يد الضياع إلى بعض هذه المفكرات أثناء انتقالها من مصر إلى المملكة العربية السعودية، ولكن بعض المفكرات الجانبية، مع ما تحتفظ به الذاكرة، عوّض عما ضاع من هذه المفكرات.

وهذا يقتضيني التوضيح أن أذكر أن أخي حمد شحن بعض كتبي من مصر إلى مكة المكرمة، فتعرض بعضها إلى الفقد في المكان الذي كانت تنتظر فيه رأي الرقيب حيالها، وفيها كتب نفيسة جمعتها، بعناية أثناء دراستي الجامعية، وأرجو أن يكون من (اقتبسها!!) استفاد منها، أما مفكراتي في إنجلترا فقد بقيت في حرز مكين، لأني أحضرتها معي عند عودتي، بعد أن حصلت على درجة الدكتوراة في عام ١٣٨٠هـ

(١٩٦٠م)، وكان التدوين فيها منتظماً، وسوف تسمح لي باستعادة كثير من الصور التي تطرب الذاكرة، وتبهج الفكر، وتعيدني إلى عهد الشباب الجميل. حتى بعض ما يشوبه العناء والتعب من هذه الذكريات وتخالطه الصعوبات والمشاق، له لذة في تذكُّره لأنه أصبح في الماضي، ولم يترك ندوباً أحملها معي اليوم.

وعلى الرغم من أن هذه المفكرات، سواء ما كان منها عن أيام إقامتي في إنجلترا، أو بعد ذلك، مختصرة، ولا تزيد أحياناً عن رؤوس أقلام، إلا أنها علامات هادية على الطريق، تضمن لي ألا أخرج عن الجادة.

وكان بودي أن أنقل أشكالها وأنواعها، فهي تتغير كثيراً، في حجمها، وفي طريقة رصد الأيام ومسيرتها،

وهي تتضمن أيضاً معلومات عامة مهمة، وبعض هذه المعلومات عن المناسبات الثابتة في السنة، وبعضها مما هو ثابت للحقبة كلها، أرقام أو إحصائيات يستفيد المرء من وجودها منظمة قريبة منه.

هذه هي المقدمة التي رأيتها مناسبة قبل الولوج إلى الحقائق التي أشرت من البداية إلى قيام الكتاب على أركان ثابتة منها.

عبد العزيز الخويطر

حياتي في عنيزة

الخطوة الأولى:

سوف أبدأ بالقبيلة، وهو بدء طبعي، أنزل منه تدريجاً عائداً إلى عصرنا الحاضر، فأقول إنني من قبيلة بني خالد، وأن جدنا، علي الحميد، حسب الروايات المتواترة في الأسرة، كان مع أسرته في المنطقة الشرقية. وعندما كان شاباً يافعاً، وفي أمسية مقمرة، كان يلعب مع شباب مثله، «والمُرامحُ» إلى وقت قريب، كان هو الوسيلة لعرض الشاب قوته، وهذا ما حدث في تلك الليلة، وفي رَمْحة من تلك الرمحات، جاءت قدم جدّي، بكل قوته، على كُلية شاب من أقربائه، فمات. وجدّنا اسمه علي الحميد في الأصل.

لم يكن عند والد عليّ المال الذي يدفعه دية، فسُمح لعلي أن يهاجر، ويعمل ليحصل على الدّية، فسافر؛

وقيل إنه جاء إلى العيينة، واستأجر مزرعة هناك، وقيل إنه استأجر مزرعة في الأحساء، والرواية الأولى هي الراجحة.

وفي عصر أحد الأيام، وقد وضع سيفه على نخلة قريبة منه، وحصانه حوله، وهما كل ما جاء به، فَجَاءَهُ عبد ابن معمّر، حاكم العيينة، وطلب منه برسيماً لخيل الأمير، فأخبره أنه فلاح جديد، وكما يرى ليس في المزرعة شيء الآن، وأن علف حيواناته التي تعمل على السواني اقترضه من جيرانه. ولم يأبه العبد بقوله، وكان معه حمار، ففرش «المنثر»، وأخذ يضع فيه البرسيم، علف جمال السواني، فكرر عليه «عليّ»: أن هذا علف (المعاويد)، فلم يلتفت إلى قوله، واستمر في أخذ البرسيم، فغلى دم عليّ، وسل سيفه، وقتل به العبد، ووضعه بالمنثر،

ووضعه على الحمار، وأرسل الحمار مسرعاً إلى من أرسل العبد.

ركب حصانه، وترك المزرعة[1]، وانحدر متجهاً غرباً، وكان الوقت شتاءً، وكان حذراً أن لا يُتبعه ابن معمر أحداً يتعقبه، لأن العبد غالٍ، وهذا «لا عزوة» له، ولا أحد سوف يحميه، وأبعد، ووصل إلى حي من العرب في عصر اليوم الثاني، وذهب إلى شراع على أطراف الحي، قدّر أنه مخصص للضيوف، ولم يكن في الحي إلا عجوز وابنة صغيرة. أرسلت العجوز البنت، وقالت لها ائتني بخبر هذا الضيف، فذهبت البنت ورحبت به، وعادت إلى جدتها، وهي في الطريق إليها أعلمتها أنه «خويطر» تصغير خاطر بمعنى ضيف، («الخاطر» هو الضيف الطارئ)، لأنه صغير الجسم.

(١) هنا حلقة ناقصة عما فعله تجاه حيواناته ومالك المزرعة.

أعجبه هذا الاسم، لأنه سوف يُعمّي أثره، وعند غياب الشمس توافد الرجال، ورحبوا به، وبقي عندهم، ثم بعد يومين أو ثلاثة رحل، فقابلته عاصفة ومطر، فعاد إلى مضرب الخيام، فسأله أحدهم وهو مقبل عمن يكون؟ قال: خويطركم البارحة. وفي اليوم التالي تركهم في طريقه إلى عنيزة، حيث آل جناح من بني خالد مقيمون فيها. وقد اشتهر بعد ذلك باسم: «خويطر».

بقي في عنيزة وتزوج، وجاءه عدد من الأولاد، ومن نسلهم الخويطر، والجابر، والمطاريد، والنعيم، والونين، والعبيكي[1]، وبقي هؤلاء يتوالدون في عنيزة إلى اليوم، إلا من انتقل منهم إلى مناطق

---

(١) تاريخ هجرة علي الحميد «خويطر» إلى عنيزة غير معروف، ولكن عقبه يصلون إلى ثمانية أجيال تقريباً كما فهمت. فأنا على الأقل سابع حفيد، أو ثامن حفيد.

المملكة المختلفة، أو خارجها. وبنو خالد حكموا وقتاً قصيراً في عنيزة، ثم تغلب عليهم حكام من سبيع، حكموا عنيزة التي كنت أسمع أنها تتكون من أربعة أحياء أقدمها الخريزة والعقيلية ثم الجناح ثم الضبط، وكان يحيط بعنيزة سور حصين.

***

والدتي :

حبي لوالدتي، وإقراري بفضلها عليَّ، وفخري بها يجعلني أبدأ بالحديث عنها فيما يخص حياتها، وسوف أعطي لنفسي الحرية في أن استطرد، وأذهب لموضوع لا يخصها، ولكني سرعان ما أعود إليها، منبهاً بالعناوين إلى هذه العودة، وفي هذا ضمان لعدم ملل القارئ.

مما حدثتني به عن نفسها ـ رحمها الله ـ أن والدي ـ رحمه الله ـ تزوجها وهي في التاسعة عشرة، وقد ولدتني بعد سنة من زواجها، وولادتي كانت في العاشر من رجب عام ١٣٤٤هـ (١٩٢٦م)، أي بعد دخول الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ جدة بما يقرب من الشهر، فالملك عبدالعزيز استسلمت له

جدة في ٧ جمادى الآخرة عام ١٣٤٤ هـ، وبهذا تكون ولادتها في أواخر ١٣٢٤ هـ أو أوائل ١٣٢٥ هـ.

مكان سكناها:

كانت ـ رحمها الله ـ تسكن مع أهلها في حي «الضبط»، وهو حي تغلب عليه روح الريف، لرقة حال أهله، وكثرة المزارع المحيطة به، والمنبثة في هذه الناحية، وأغلب أهله يعملون بطريقة أو أخرى في هذه المزارع، رجالهم ونساؤهم وأطفالهم. ومباني حي «الضبط» محدودة العدد، متواضعة التصميم، ليس بينها ما هو من طابقين، ولكنها صحيّة، لأن القليل منها غير متسع، ولعل هذا عائد إلى أنها خارج البلدة، والأرض سعرها متيسر، وهي محدودة الشوارع، خالية من

الدكاكين، وبعض الأشياء الضرورية تباع في بيوت معروفة ومعينة، وقد يكون رب البيت فيها ممن يبيع مثل هذه الحاجات في دكان داخل عنيزة، والأشياء الضرورية هي السكر والشاهي.

ولادة في المقبرة:

في عنيزة عدة مقابر على أطرافها: واحدة للجناح، والثانية للخريزة خارجها، وللضليعة وما حولها مقبرة. وفي الضبط مقبرة قديمة تنقسم إلى ثلاثة أقسام، ويهمنا هنا القسم الذي على يمين المجرى، الملاصقة للجرين، وتسمى الضبطية.

والمجرى شعيب يسيل في وقت الأمطار، فيقطع السابلة في تلك الجهة، وعندما يقف

سيله يُصبح مليئاً بالطين، مما يجعل المرور عبره متعذراً، وأول من يبدأ المرور به إذا جف الدواب، وراكبوها.

وسبب ذكري لهذه المقبرة أن لها ذكرى تستحق أن تُروى، وهو أنني، ووالدتي، عام ١٣٥٣هـ كنا في طريقنا من داخل الديرة إلى بيت أخوالي في حي الضبط، وطريقنا يمر شرق هذه المقبرة، ملاصقاً لها، وكانت والدتي حاملاً في شهرها التاسع، وكانت تسير وتقف طوال الطريق، ويظهر عليها الألم والمعاناة، وعندما حاذينا المقبرة جَلَسَتْ تحت شجرة أثل هناك، وكان ذلك وقت أذان المغرب، فقالت لي:

إذهب إلى خالاتك، وقل لهن إن أمي هنا، وأن

رجلها تؤلمها، ولم تعد تستطيع المشي، واسرع، وكنت في العاشرة من عمري، وكان ذلك في شهر صفر من ذلك العام.

ذهبت إلى بيت أخوالي ركضاً، وأخبرت خالاتي، وكان من بينهن من قد دخلت في الصلاة، فقطعت صلاتها، ومع الأخريات أخذن سراجاً، وذهبن مسرعات إلى حيث قعدت الوالدة، وكنت متعجباً من أخذهن الأمر بهذا الجد، ولم أجد مبرراً لهذا الركض والعجلة، والأمر لا يعدو ألماً في رجل الوالدة ـ رحمها الله ـ ولكن سرعان ما عرفت أن والدتي قد ولدت لي أختاً هناك في المقبرة! حياة حيث الأموات!.

وأكّد الجميع عليَّ أن لا أخبر أحداً من أهلي

«الخويطر» بما تم، حتى لا يعاتبوا الوالدة على عدم الاستجابة لإلحاح عمتي عليها بالذهاب في أول النهار عندما ظهرت علامات الطلق عليها، ولكنها أصرت ألاّ تذهب حتى ينتهي جدي «علي» من تناوله لعشائه، لأنها تشعر بمسؤوليتها تجاهه. هذا التهاون تجاه صحتها استمر معها حتى آخر حياتها، إذ لم تكن تشكو المرض حتى يصبح واضحاً لمن حولها ـ رحمها الله رحمة الأبرار ـ.

هذه الرحلة إلى حي الضبط مع والدتي في سنة كان الوالد فيها في مكة، مديراً لماليتها، ولو كان حاضراً لكان هو الذي يوصلها إلى بيت أهلها في حي الضبط، فقد كان هذا دأبه عند ذهابها إلى

هناك عندما كنت صغيراً، كان يمشي أمامها، قريباً منها، كما هو المعتاد حينذاك، يصحب الرجل زوجته لزيارة أهلها، والرجال بمجرد أن يروا رجلاً يمشي أمام امرأة يعرفون أنه محرم لها، فيتفادون القرب منهما، أو إيقاف الزوج والسلام عليه.

خاطب والدتي لوالدي:

الذي خطب والدتي وذكرها لوالدي هو ابن عمها، واسمه إبراهيم المحمد القاضي، وهو والد عبدالرحمن الذي سوف يأتي الحديث عنه ـ إن شاء الله ـ فيما بعد.

فإبراهيم هو الذي اقترح عليه الزواج منها، ولا أدري ما هي الصلة بين والدي والعم إبراهيم

المحمد القاضي، فقد تكون صحبة سفر، أو أنه كان يجمع بينهما مجلس من مجالس السمر في «قهاوي» البيوت، وهذه القهاوي المنزلية تعقد بعد صلاة العشاء، يجتمع السامرون فيها، وقد ينتقلون في الليلة الواحدة من قهوة إلى قهوة.

والعم إبراهيم هو الذي أقنع جدّي بفكرة زواج والدي، وكلمة «إقناع» تدل على أنه كان هناك معارضة احتاجت إلى جهد انتهى باقتناع، فقد يكون جدي ـ رحمه الله ـ غير مقتنع في أول الأمر، لأن زواج والدي من والدة أخي محمد كان قد تم منذ وقت قريب، لم يمر عليه أكثر من ثلاث سنوات، وكان قد وُلِدَ له إبنة منها.

رضاعي من خالتي حصة:

بعد ولادتي بسنة تقريباً نقص حليب والدتي، ثم جفّ، ولعل ذلك بسبب حملها الجديد، فحاولوا أن يفطموني[1]، ولم يجدوا ذلك سهلاً، وكانت خالتي قد أرضعتني، فرأوا إرسالي لبيت أخوالي، فقد يساعد بُعدي عن والدتي على فِطامي، ولكن خالتي حصة استمرت على إرضاعي.

وأثناء وجودي عند أخوالي كانت خالتي تأخذني إلى بيت أهلي «الخويطر» لأرى والدتي، ثم تعود بي، فهي والدتي من الرضاعة، ونعم الوالدة هي، وكنت أحبها حبّاً جمّاً ـ رحمها الله.

وتذكر الوالدة أنه في إحدى المرات التي عدت

(١) كان هناك اعتقاد بأن الحامل إذا أرضعت الطفل أضر هذا بصحته، ويقولون عنه إنه «راضع مِهِل».

فيها إلى بيت أهلي «الخويطر»، وكان الوقت ليلاً، رأيت إحدى نساء البيت، وفي يدها سراج «فانوس»، عند القربة، وأنا بعيد عدة أمتار، على مستوى أعلى من المستوى الذي فيه القربة، فاندفعت نحو حاملة السراج جرياً وأنا أقول:

«إسّة، إسّة»، أي حصة، وهي اسم خالتي، وكنت في غاية الفرح برؤيتها، ولم أدرك أنني على مستوى غير المستوى الذي أنا متجه إليه، فوقعت على وجهي، ولا أدري ماذا حدث لي، لأني لم أستفسر بدقة من والدتي، وهي تروي لي هذه الرواية. وخالتي أرضعتني مع ابنها صالح العبد العزيز العضيبي، أطال الله عمره، وألبسه الصحة والعافية.

أمي وعمتي موضي:

هاتان السيدتان تأخذان حيزاً وافياً من فؤادي، وأكاد لا أتصور واحدة إلا ومعها الأخرى، لما كان بينهما من لحمة وتمازج، عاشتا وكأنهما أختان، أخت كبرى وأخت صغرى، ترعى الكبرى الصغرى وكأنها ابنتها، وكان تأثيرهما في حياتي متساوياً، لتماثل محبتهما لي ولإخواني. لا أذكر عنهما إلا كل خير تجاهي وتجاه غيري، وإن كنت صاحب الحظوة عندهما، ولعل ذلك بسبب سنّي الذي يسمح لي بإدراك ما تبذلانه لنا من جهد، وما نناله منهما من عطف، السيدتان هما عمتي موضي، وأبدأ بها لكبر سنها، ولأني أعرف أن تقديمها، حتى في المذكرات، يثلج

صدر أمي، لو عرفت عنه، لمحبتها لها، وتقديرها لما تعمله من أجلها، ومن أجل أولادها. والثانية والدتي، ويكفي أنها والدتي لتحتل مكانها أُمّاً رؤوماً لها مكان رحب دافئ في قلبي.

وعمتي موضي - رحمها الله - كانت متوسطة العمر عندما عرفت نفسي وعرفتها، ولم تتزوج أبداً، وكانت مثل والدي وعمي «كريمة العين»[1]، ولا أدري متى فقدت عينها، وقد يكون ذلك نتيجة حادث، أو مرض، أو بسبب الجدري. وهي - حسب علمي - أصغر إخوانها وأخواتها، وهي أكبر كثيراً من والدتي.

---

(١) لا أدري لِمَ سُمّي فاقد عين كريم عين، ولعله تفاد لكلمة «أعور» البشعة، وتأتي الحيرة من اختيار مادة «كرم»، وقد يكون بقاء عين واحدة يوجب إكرامها، والمحافظة عليها، لعظم فائدتها لصاحبها.

وكانت «القيّمة» على البيت، فهي العين الساهرة عليه، وفي يدها تدبير ما يخص المعيشة، وتقرير نوع وجبة اليوم، التي لم تكن تختلف عن مطازيز، أو مرقوق، أو قرصان، أو جريش. وكلها كما نرى من منتجات القمح، إلا عشاء جدّي، فكان كل يوم قرصان، وجبة ثابتة لا تتغير، وكأني أنظر الآن إلى «المُوقَعَة» التي يوضع فيها قرصانه، وقد يكون في أعلاها «قرعة» دُبّا، أو بيدجانه، أو «جباً»، حسب المتوافر من الخضار في كل وقت من أوقات السنة. أما القرع «المصري»[1] فيكاد يكون متوافراً طوال العام، لأنه يُشْتَرى منه كميات كبيرة، وهي تصبر مدة طويلة، خلافاً للقرع «النجدي» (اليقطين)، فهو لا يتوافر إلا أيام الصيف، ولا يتحمل الخزن.

---

(١) وهناك القرع الشامي وهو مثل القرع المصري في صلابته.

والجريش لا يقدم إلا في أيام نادرة، لأن اللبن عنصر رئيس فيه، واللبن مورد كثير الزحام، وأذكر أن عمتي موضي تحرص أن تطبخ جريشاً عندما تزورنا عمتي مضاوي، والدة صالح الحمد القرعاوي، وهو احتفاء ظاهر بها، وبأولادها. وأذكر أن عمتي مضاوي ـ رحمها الله ـ كانت حاملاً بابنها عبدالرحمن ـ رحمه الله ـ ويبدو أن الوحم أجبرها أن تتخلص من الجريش في حوض النخلة، فصادف هذا مروري وهي بهذه الحال فأصبت بعقدة من الجريش، وبقيت سنوات طويلة لا آكله، ولا أطيق رؤيته، ولم أتغلب على هذه العقدة إلا بعد أن بهتت صورة هذا المنظر الكريه الذي رأيته، ولم أخبر أحداً بهذا، ولهذا كان أهلي يعللون عزوفي عنه، وعدم طاقتي رؤيته، بأني

مصاب بعين «منحوت» أو «منضول»!.

كانت عمتي موضي ـ رحمها الله ـ تعطف على والدتي كثيراً، لأن والدتي أصغر منها، وتشعر بأمومة نحوها، ووالدتي مسالمة حتى مع من يأتيها منه بعض الأذى، وتطيع الأوامر طاعة عمياء، وتتلذذ بالعمل فيما يخصها أو يخص غيرها، وكانت تساعد عمتي مساعدة كاملة في عمل البيت، وهذا أمر جعل عمتي تقابله بالعرفان بالجميل. وكان عطف عمتي يثير بعض الجدل الذي ينتهي دائماً في صالح والدتي، التي لا تدافع عن نفسها، وتلزم الصمت المطبق، وهذا يغيظ المخطئ عليها، وبعض هذا الصمت يعود إلى أن عمتي تنبري للدفاع عن والدتي، وموقعها وهي

بنت الأسرة أقوى من موقع والدتي، وموقع من تدافع عنها أمامهن.

وكانت والدتي تجد الوقت، مع عنايتها بأمورها وأمور جدّي وأمور أولادها، لتساهم مع عمتي في الطبخ وفي التنظيف، و «الجلة» وجلّها، وملء «القراوة»، وكنس البيت، وتطييب العيش[1] (القمح)، وحلب البقرة وإعلافها، وتنظيف مراحها (حوشها) وصفّتها، والمساهمة في الطحن، والذهاب إلى السوق، أو إلى أحد البيوت لقضاء ما تُكَلَّف به.

وهذا الوقت توفر لها لأن والدي كان كثير الأسفار طويلها، مما يتيح لها وقتاً إضافياً، مع عدم نسيان غسيل «الهدوم» (الملابس)، وهو أمر يهد الأكتاف،

(١) تطييب العيش أي تنظيفه من الشوائب، والغبار «بالنسف» أو بالنفخ، وبتنقيته من الحصى باليد.

ويُقَسِّي الأيدي، ولكن العمل رياضة في الجسد، وصفاء في الذهن، لا تشغله بالقيل والقال، والنهش في لحوم الناس.

ومن الأمور التي جعلت والدتي مسالمة لا يستفزها شيء من الأمور التوافه التي تثير غيرها من النساء عادة، أنها من أسرة كريمة، عُرفت بحُسن الخُلُق، والمسالمة، وطول البال، وسعة الصدر، وحب الخير، وهي أسرة «آل قاضي»، وهم من تميم، وكانوا، قبل انتقالهم إلى عنيزة، في بلدة «أشيقر»، بلدة العلم والعلماء، الغنيّة بخيراتها ونخيلها، واسمهم يدل على منزلتهم بين الناس، فليس في المجتمع في نجد من هو محط الاحترام والتقدير مثل القضاة، لما يقومون به من عمل نبيل، سعياً في الخير بين المتخاصمين، وعدلا في

القضاء، مع كرم نفس ويد، وهم ملجأ الحزين بعد الله، وعضد المحتاج للعون وبذل المعروف. لهذا لا يستغرب أن تكون ـ رحمها الله ـ بالصفة التي كانت عليها، وكان مبدؤها «العمل زكاة البدن».

يضاف إلى هذا الأساس المهم أنها جاءت من أسرة ليست غنيّة، وهذا جعلها ترضى بالقليل، وتحمد الله عليه، ولا تتطلع للكثير مما هو من حقها في كثير من الأحيان، ولهذا أراحت رقبتها من أن ترفعها إلى أعلى مما تحتاجه. وكان دأبها حب الخير، والسعي إليه، وإعطاءه، ولم تكن تتطلع إلى مقابل لما تبذله، ولا تشعر أن لها حقاً مضاعاً أو مفقوداً، وما تحوزه تعتقد أنه يكفي لرضاها. وأظن أن أهلي «الخويطر» فوجئوا بأن تكون كذلك، فكانت عمتي

تحاول أن تعضدها، وأن ترعى أمورها، لما رأته من تركها حقها طلباً للسلامة، وراحة البال، وعمتي لا ترى ذلك، ولعلها تشعر أن والدتي في «ذمتها»، وتبرئة لهذه الذمة تنبري للدفاع عنها، والانتصار لها، واستخلاص ما هو حق لها. ولا أدري من كان يقوم بما تقوم به والدتي قبل مجيئها، لأنه فوق طاقة عمتي، ومع هذا فليس هناك أحد غير عمتي يقوم بأمور البيت.

حب عمتي لوالدتي شملنا نحن أولادها، فكانت عمتي تحبنا ونحبها، ولا نعد حزمها معنا إلا من موجبات احترامنا لها. لقد مرت بحياتنا كالطيف، وقد استطاعت والدتي أن ترد لها الجميل، فبعد أن توفي جدي ـ رحمه الله ـ انتقلت عمتي إلى مكة، وأكرمتها الوالدة غاية الإكرام، وشعرنا نحن بسعادة

غامرة، خاصة وأنَّا قد كبرنا، فكنا نقضي أكثر وقتنا معها، وبجانب غرفتها «خارجة» (سطح)، وكانت كثيراً ما تجلس فيها، إذا برد الوقت، وتقول: «أنا لا أحب الغرف لأني «مضناة بالطاية» أي مولودة في السطح. وسافرتُ إلى مصر وهي في مكة، وكان معها «كحة» لا يهدئ سعالها إلا حلاوة «حامض حلو»، وكلما نفد ما لديها منها ذهبتُ إلى «خان اليوسفي» بجانب «المدَّعَى» بمكة، وأحضرت لها علبة، وكنا نستفيد من الحلوى مثلها إن لم يكن أكثر منها، فقد كانت كريمة معنا، وإلى اليوم أشعر بلذة عند تناول مثل هذه الحلوى، التي تأتي على شكل «فصوص» ليمونة صغيرة، وأعتقد أن بائعها كان عنده مخزون كبير منها، أو أنها تأتي من الشام، لأن الحرب العالمية الثانية قضت على كثير مما كان موجوداً من السلع في

مكة ـ شرّفها الله ـ .

وأذكر بغبطة أن تسامح والدتي، وحسن تعاملها مع غيرها، نفعها، فكانت بعد أن عرفها من حولها محترمة من الجميع، وكلهم في كبرهم ذكروا لها هذا، واعترفوا بالميزات التي اتصفت بها، ومنها رجاحة العقل، والصمت والهدوء، والصبر والتحمل، وحسن الظن بالناس، وكأن مبدأها مع من بدا منه ما ينتقد هو: «لعل له عذراً وأنت تلوم».

وكان الجميع يدعون لها في آخر حياتها، ويترحمون عليها بعد مماتها، وهي، في نظري، امرأة فريدة ـ رحمها الله ـ ويمكن أن يُكتب عن حياتها مُجلد ضخم ممتع، يبين ما فيها من مزايا وهبها الله لها، ونعم مَنَّ الله بها عليها، ومن رأى أفعالها وتصرفاتها لم يستغرب

تميزها، لأنه سيدرك أن طيب محتدها، واستعدادها للتفوق الخُلقي، والبيت الذي تربت فيه، والبيئة التي درجت على أرضها، كان له الأثر الحسن ـ بعون الله ـ سبحانه وتعالى.

كانت التقاليد حينئذ تقضي أن لا تخرج المرأة التي لم تتزوج من بيت أهلها نهاراً مهما بلغ سنها، وهذا دأب «الحمائل»، وما تسير عليه الأسر الراقية، التي لا تحتاج نساؤها إلى الكدح من أجل المعيشة، ولهذا فعمتي ـ رحمها الله ـ كانت لا تخرج من البيت نهاراً أبداً، ولم أرها خرجت إلا إذا اضطرت لخلع ضرس من أضراسها، فحينئذ تذهب مع والدتي إلى دكان «الراجحي»، وهو رجل له دكان بجانب مسجد المسوكف، وأظنه

كان يبيع الحبوب، وبجانب دكانه سويق «سد»، أي طريق غير نافذ، كان يقلع فيه الأضراس ومحتسباً في عمله ـ رحمه الله ـ وكان لا يفتح دكانه إلا نهاراً، ولهذا تضطر النساء اللاتي مثل عمتي إلى خرق القاعدة والخروج نهاراً للضرورة، وكانت عمتي ـ رحمها الله ـ مخدومة، فوالدتي تقوم مقامها في جلب ما تحتاجه من السوق، سواء كان ذلك قماشاً أو غيره. وعلى هذا فعمتي لا يطلب منها الخروج لأي مناسبة، سواء كانت المناسبة تهنئة بعُرس أو ولادة، أو تعزية بوفاة، أو تهنئة من هو أكبر منها من أقاربها بالعيد أو بشهر رمضان، أو بالعودة من الحج، ولكنها كانت تذهب أحياناً للتراويح في ليالي رمضان، خاصة ليلة الختمة، وكانت ـ رحمها الله ـ حريصة على صلة الرحم،

ومساعدة غيرها، وسد حاجة المعوز خاصة الجيران، وكان أقربهم جارة لنا زوجها بدوي متوفّى، وله منها ولد وبنتان. وهذا الابن أصبح أخاً لنا رضاعاً، فكانت تحرص على أن لا يبيتوا جياعاً بأي حال من الأحوال، وتحرص أيضاً على موافاتهم بالكسوة أيام العيد.

ولعمتي موضي ـ رحمها الله ـ آراء تشعر معها أنها تصلح لأن تعرض على الرجال من أهلها، لأنها أحياناً ترى ما قد لا يرون، ويرون هم ما قد لا تتنبه له هي، وهذا يضايقهم، ولكنها لا تتردد في عرض ما يعنّ لها، وما يمر بفكرها، مما ترى أنه مفيد، ولعل مبدؤها القول السائد بين النساء ممن لهن دلالة، تقول الواحدة منهن عند إبداء رأي جريء: «أنا

أم ما أطلق»، وكثيراً ما سمعتها من نساء لهن الدالة على من يحببن، يقلنها وكأنها تعطيهن المبرر للانتقاد، وهذا ما قد لا تستطيع الزوجات الإقدام عليه، ومن هذه الحالات التي أقدمت عليها العمة الحالات الآتية:

الحالة الأولى:

كان لجدتي، والدة أبي، نورة البراهيم المنيع، بيت لأبيها في حي راق، وهو كبير بمقاييس ذلك الوقت، وهو قريب من مسجد القاع، وبيوت آل نعيم، وأمام بيت عقيل المحمد ـ رحمه الله ـ ويبدو أن جدي إبراهيم هذا كان موسراً، لأن البيت كبير، والقهوة في البيت كبيرة، ولابد أن ضيوفه كبار وكثر، فقد فُتح في مدخل القهوة فتحتان؛ فتحة

على الجانب الأيمن من الباب، وأخرى مقابلة لها في الجانب الأيسر، لتسمحا «الصينية الكور» بحوافها الممتدة أن تمر من الباب.

وكنا نذهب إلى هذا البيت بين آن وآخر، ولعل ذلك لسقي بعض النخيل هناك. وهو على شارع واحد، وخلفه بيت صغير لرجل فقير، وهذا الرجل ـ رحمه الله ـ متخصص في مهنة متدنية إلى حد ما، فلما توفي عرض بيته للبيع بخمسة عشر ريالاً فرنسياً، فقالت عمتي لعمي:

اشْتَرْهُ ليكون لبيت الوالدة منفذ على برحة الدغيثرية، فاندهش عمي من هذا الاقتراح، وصعق، وقال لها:

نشتري بيت فلان بخمسة عشر ريالاً!! بيت

فلان!! بيت فلان! بخمسة عشر ريالاً، وأخذ يردد هذه الجملة بدهشة، ثم قال لها:

ماذا يقول عني أخي عبدالله لو كتبت له بهذا؟! ماذا يقول؟!

ولم يصل الحديث إلى نتيجة، فعمي إبراهيم ـ رحمه الله ـ لم يكتب لأبي في مكة، ولم يُشتر البيت، وليت عمي كتب للوالد، وليتهم اشتروه بخمسين، ولو تم هذا لانتقل البيت من درجة إلى درجة، وليقل الناس ما يقولون، ولا أدري ما الذي أزعج عمي، هل هو المبلغ أم الرجل وقيمته في المجتمع؟ وهذا هو الأرجح، المهم أن الأمر أزعج عمي، ولو كان من اقترح هذا غير عمتي لكان الرد أشد.

وبيت جدتي هذا، للأسف، انتهى به الأمر قبل ما يقرب من ثلاثين عاماً أن «صبّره» وكيل الورثة بأقل من مئة ريال في السنة على رجل في إدارة الأوقاف كما فهمت، فهدمه، وبنى عليه عمارة تغل، حسب ما سمعت، مبلغاً طائلاً، ولعل مثل هذه الأمور تحتاج إلى دراسة.

الحالة الثانية:

وعلى الرغم من أن هذه الحالة حدثت في سنة لاحقة في مكة، حقها كذلك أن تكون من ذكريات مكة، إلا أن صلتها بالموضوع تبرر ذكرها هنا.

بعد وفاة جدي ـ رحمه الله ـ في عام ١٣٥٨هـ في عنيزة، انتقلت كل من عمتي مضاوي وعمتي موضي ـ رحمهما الله ـ إلى مكة، عند والدي، وهو

أكبر أفراد الأسرة وسكنوا معنا، وكانت كل واحدة منهما تنزل للمجلس الذي يفطر فيه يومياً، وتقعد معه إلى أن يغادر إلى عمله، وعمتي مضاوي، والدة صالح الحمد القرعاوي وعبدالله الحمد القرعاوي وعبدالرحمن القرعاوي، دبلوماسية لا تتحدث إلا بما يحدثها به، وتتجنب أن تغضبه، أو تتدخل فيما لا يعنيها، ولعل منطقها في هذا أنها، وقد تزوجت، أصبحت تتبع أسرة أخرى، وأن صلتها بزوجها ـ رحمه الله ـ وأولادها، أبعدتها عن أمور أسرتها الأصلية، وقد توصلت إلى هذا المسلك من طبيعتها المحببة، وقد أخذ أولادها منها هذه الطبيعة الممتدحة، ومن حسن حظ أولادها أن والدهم كان كذلك، وكان من أهدأ إخوانه ـ رحمهم الله جميعاً ـ .

أما عمتي موضي فكانت صريحة، وكانت تجرؤ على الوالد، ولعل ذلك بسبب أنها تعوّدت في عنيزة على المسؤولية، وتربّت على هذا، فعندما ترى خطأً أو يخطر بذهنها اقتراح، تبرز روح المسؤولية عندها إلى السطح، فتنقاد لفعل ما تعوّدت عليه من الصراحة، والسعي لما ترى فيه مصلحة للبيت والأسرة.

كانت تنزل بعد كل يومين إلى مجلس الوالد حيث يتناول إفطاره، وتأخذ في الحديث معه، وقد شغل ذهنها، سكن الأسرة غير الثابت في مكة، وكثرة تنقلها من بيت إلى بيت، واهتمت بالبحث عن وسيلة للاستقرار في بيت واحد، وهو ما تعوّدت عليه في عنيزة، بيت واحد مملوك غير مستأجر، فقالت للوالد:

لماذا لا تشتري بيتاً تستقر فيه، بدلاً من الحل والترحال، كما هي حالك الآن؟

فهبّ واقفاً، وقطع إفطاره، وقال:
«المرأة والطفل الصغير يحسبون أباهم على كل شيء قدير» وكأني بعجلات فكره دارت بسرعة وجعلته يحسب أن هذه المرأة محدودة التجربة جاءت لتنبهه لأمر هو غافل عنه، فلم يطق هذا، ولم يكن أمامه إلا أن يترك المكان لها بعد أن رمى عليها الحكمة التي تبلورت في ذهنه بسرعة فائقة.

اجتهادها ـ رحمها الله ـ حاد عن الصواب، وجانبه التوفيق، وقد وقعت ضحية لأول فكرة ضحلة جاءت في ذهنها، درست جانباً من المشكلة، ولم تتنبه لبقيتها وهي الأهم، عرفت شيئاً ـ رحمها الله ـ وفاتها شيء،

عرفت التنقل، ولكنها لا تدري عما بحوزة الوالد من المال، والمال الذي عنده هو رأسماله الذي يتاجر به، ويساعده مع وظيفته للقيام بالتزاماته المالية، ولو جمّده في مبنى، فمن أين له ما يكفي الصرف على احتياجاته، فهو وهو الخبير بالتجارة أعرف بما فيه المصلحة.

أدركت ـ رحمها الله ـ أن اجتهادها أخرجها من جادة الصواب، وكان عليها عدم التدخل، وبعد هذه الحادثة كفت عن التدخل، وأخذت الدرس وافياً كافياً ـ رحمها الله ـ وأسكنها فسيح جنات النعيم.

ولما جاءتنا عمتي في آخر حياتها في مكة أصبحت في راحة تامة، مخدومة من جميع الوجوه، فلا تعب جسم، ولا هم ذهن، ولا مسؤولية، وقد كبرت، فلزمت مصلّاها، تأنس بنا ونأنس بها، ومنها أخذنا

نتفاً من أخبار الأسرة، وهي نتف تأتي عَرَضاً في أثناء حديثها، فقصة موقفها مع عمي إبراهيم عن البيت الصغير الذي أرادت أن تضمه إلى بيت جدتنا، وقصتها مع الوالد، واقتراحها شراء بيت للأسرة تستقر فيه وقصص أخرى مبعثرة في هذه المذكرات، كلها مما كنا نتسقطه من أحاديثها ـ رحمها الله ـ ولم تكن تبخل علينا بشيء مما تعرفه صغر أو كبر، وكان بإمكاننا، لو كنا ناضجين، أن نأخذ منها أكثر مما أخذناه عن طريق الصدف، أو الاستطراد في الحديث.

وقد ذهبت إلى البعثة في مصر في عام ١٣٦٥هـ، ونبئت بوفاتها وأنا هناك، ويبدو أن وفاتها كانت بسبب مرض السل فقد كانت منذ زمن قديم وهي تسعل سعالاً كثيراً وحادّاً، ويبدو أنه مزمن. وتقول

الوالدة ـ رحمها الله ـ أنها في آخر أيامها، وهي بجانبها، كانت تكح دماً. وهذا أمر يعيد إلى الذهن ما كان عليه الوعي الصحي، من انعدام أو ضعف، فقد كانت نجد في أسوأ حالات الجهل بأمور الصحة، وكانت النساء يمضغن تمر «اليبيس» لأبنائهن الرضع، ويلقمنه هؤلاء الأطفال، ومعه ما بهن من أمراض. وكانت عمتي ـ رحمها الله ـ هي التي تنفخ «صميل» اللبن، وتخضه، وكحتها وسعالها لا ينقطعان.

يقع روشن عمتي بجانب روشن الوالدة، في بيت آل فهد البسام، الذي اشتراه الوالد حديثاً، وكانت تستفيد منه استفادة تامة، بعد أن نقلت إليه، إذ لم يكن لها روشن مخصص، ولعلها كانت تنام مع والدتها، فلما توفيت والدتها انفردت بروشنها،

وصار هذا الروشن في بيت آل فهد رفداً تلجأ إليه عند الحاجة. ومما يدخل في هذه الحاجة طبخ «الدويفة» أو «الرغيدة» أو ما يسمى اليوم في بعض البلدان «الحريرة»، وهي أكلة القيلولة المفضلة، ولا يزاحمها إلا قريصات «التاوة».

والدويفة أقرب للشُّربة، يوضع فيها من طعم اللحم، إن وجد، و «يُذر» الدقيق تدريجاً في الماء الذي يغلي، ويحرك تحريكاً جيداً متواصلاً، ويضاف لذلك بعض الخضار وزهر القرع، حسب الموسم، وهي لذيذة مع الجوع، ولا ينساها الصغار أبداً.

وكانت عمتي تتستر بقدر ما تستطيع عند عملها عن عمي، وتبعد إلى أقصى مكان في بيت الفهد حتى لا تفضحها الرائحة، وكان هذا العمل لا يرضي عمي

ـ رحمه الله ـ لأنه يأتي على حساب الوجبة الرئيسة، العشاء، وهو مؤتمن عليها أن لا تنقص، وهذا العمل الجانبي لو دام لزاحمها وأنقصها، لأن البيت به أُناس كثيرون، فيضطر أهل البيت، والقائمون على الصرف عليه، أن يكتفوا بالمجزئ والضروري، وأن يبتعدوا عن أي إضافات قد لا تمانع فيها الأسر الصغيرة المحدودة، ولكنها منهكة للأسر الكبيرة.

وأذكر بهذه المناسبة أن لنا جيراناً حالهم متواضعة ودخلهم محدود من دكان يبيع بعض ما هو غير ضروري، والأسرة لا تزيد عن رجل وزوجته وابن وبنت، وكنت زائراً لهم في يوم من الأيام قبيل المغرب، وهو الوقت المعتاد لتناول وجبة العشاء، فقدموا عشاءهم، وكان مليئاً بما لذ وطاب من الخضروات،

وكان العشاء «مرقوقاً»، وبه من جملة الخضار «لُوبَا»، فكانت تلك الوجبة أطعم وجبة أكلتها في ذلك الزمن.

ولا يمكن لأهلي «الخويطر»، على غناهم، أن يضعوا في المرقوق كل هذه الخضار، ولو حاولوا وضع «اللوبا» وحده لاحتاجوا إلى ما لا يقل عن كيلين، بينما جيراننا يكفيهم «صمة جمع» (ملء الكف).

و «الدويفة» لو كانت تعمل يومياً لأكلت من السمن والدقيق والقرع والخضار ما يعادل نصف ما تحتاجه الوجبة الرئيسة المنتظمة.

وبيت آل فهد مخبأ جيد لمن أراد أن يخرج عن النظام في بيتنا، سواء من الكبار أو الصغار.

وقد قام جدل حول جواز هذه «السرقة» اللذيذة الجميلة شرعاً، فقال رأي إنه لا يجوز لمن ائتمنت على «مونة» البيت وأرزاقه أن تصرفها في غير ما خصصت له إلا بإذن صاحب المال، فرد آخرون بأن هذا ينصب على صرف الأموال على من هو خارج البيت، أما صرفه على من هو في البيت فحلال «بلال»[1]، لأن من في البيت في الذمة، ولا يحتاج الأمر إلى مشاورة صاحب الشأن في كل صغيرة وكبيرة، فيقول الآخر ألا يبرئ الذمة أن تخبروه بعد أن ينتهي الأمر، فلا يجيب على هذا التساؤل أحد، لأن الجميع انصرفوا إلى شرب الدويفة، وتكلمت «الخواشيق» بدلاً من الألسنة، وإذا كان الحديث يقول فيما فيه شبهة استفت قلبك، فنحن الصغار نقول: استفت بطنك

(١) بلال لا معنى لها، ولكنها وتد يسند الجملة السابقة أو يؤنسها!!.

في هذه، وفي «صرم السبل» وغيره مما نسأل الله أن يغفر لنا ما أقدمنا عليه فيه، وهو أكرم من أن يجازي صغارَ عقولٍ مثلنا.

رحم الله عمتي موضي رحمة واسعة، وأسكنها فسيح جناته، فقد كانت موفقة لعمل ما يبهج الصغير، ويقوّي الضعيف، ويجلب البسمة للفقير. وكانت تتحمل ـ بجانب عبء العمل في البيت ـ اللوم، ولكن هذا لم يكن يزعجها، ألم تقل «إنها أُمٌّ لا تطلق»؟.

دويفة اليوم:

بعد أن كبرنا، واختلفت طريقة معيشتنا، وأصبح بإمكاننا، أن نطبخ «دويفة» غنية بما لذ وطاب، من أنواع الطعم والخضار والأبازير، جربناها فلم

نجد لها لذة تلك الدويفة المتواضعة في ذلك الزمن، لأنه ينقصنا عنصران من عناصر لذة الأكل، الأول الجوع، فنحن لا نكاد نجوع، والثاني الشباب فلم نعد شباباً.

وفي حديث في مجلس الملك خالد ـ رحمه الله ـ عن الأكل في سنوات مضت، ذكر أنه تذكر «الرغيدة» القديمة، فاشتاق إلى تقديمها، وطلب من طباخهِ أن يصنعها، و«يُنصِح» في عملها، ولا يبخل بما يجعلها لذيذة تفتح الشهية، فعملت لجلالته، فلما ذاقها لم يجد فيها لذة القديمة، رغم العناية بها وخدمتها خدمة تليق بسفرة ملك، ولكن العنصران المهمان اللذان ذكرناهما لم يكونا حاضرين.

وأحاديث الملك خالد ـ رحمه الله ـ ممتعة، وكأنه

يقصد منها إعطاء ضيوفه فرصة أن يأكلوا مرتاحين، متلذذين بما بين أيديهم، ومن قصصه ـ رحمه الله ـ القصة الآتية:

رحلة صيد للملك خالد :

في الحديث عن «الدويفة» (الرغيدة) في مجلس الملك خالد ـ رحمه الله ـ قبل إحدى الوجبات أو بعدها، تطرق الحديث إلى أسباب عدم التلذذ اليوم بما كنا نتلذذ بما هو أقل منه من قبل، أيام الشباب، فتركز الحديث على البحث عن أسباب ذلك، واتجه إلى أن ظروف المعيشة اختلفت، وللشباب شهية تقل مع تقدم السن، فقص ـ رحمه الله ـ قصة تؤكد ذلك:

قال: كنا في «المقناص»، وكنا أربعة في سيارة واحدة،

وكنت أنا السائق، برفقة الأمير فيصل بن عبدالعزيز، والأمير فهد بن سعد، والأمير فيصل بن سعد، وانفصلنا عمن معنا، وبَعُدنا عنهم، وصدنا حباري، وهي سبب انحرافنا عن خط السير، ومن حسن الحظ أن معنا مع الماء أرزاً، وكان البرد قارساً، وأمضنا الجوع. وكان معنا تنكة ملأى بالبنزين «احتياطاً»، فأفرغنا ما فيها في «التانكي»، وقصصنا أعلاها، ولضمان أن لا يبقى فيها للبنزين رائحة كفيناها على لهب النار، ثم وضعنا الماء والحباري والأرز فيها، وأوقدنا تحتها النار، فلما استوت أكلناها من تنكتها، ولا أذكر أكلة أطعم من تلك الأكلة إلى اليوم: شباب وجوع، وبرد، وتعب، وأرز ولحم حباري وفي البر، ورفقة هنية، رحمهم الله وأسكنهم فسيح جناته.

امطخ وارشخ:

يقولون إن بدوياً قدمت له رغيدة، وأخذ يشرب منها ويقول: «امطخ وارشخ وا طيباه» فمنذ أن سمعنا بهذا صرنا نقول هذه الجملة بتواصل وانتظام، مع إحداث أعلى صوت عند المطخ والرشف.

***

والدي عبدالله العلي الخويطر:

والدي عبدالله العلي العثمان الحماد الخويطر، لا أدري متى بدأت أميّز والدي من بين من حولي، لأنه كان كثير الأسفار قبل أن يتقدم به السن، ويلتحق رسمياً بخدمة الملك عبدالعزيز ـ رحمهما الله ـ ولهذا فمعلوماتي عنه في طفولتي المبكرة قليلة، بعضها رسمته مما سمعته عنه من بعض أهلي.

في وقت من الأوقات بدأت أشعر بحبه لي، وعطفه عليَّ، ولا أذكر في أي سنّ كنت عندما برّني ببيضة مسلوقة، والبيض لا يؤكل عادة، وإنما يُجمع للتفريخ، أو يُدخر لعمل الكليجا، وهو نوع من البسكويت مما يأخذه الحُجاج، أو غيرهم من المسافرين معهم، ولهذا، وبمقاييس تلك الأيام يُعد ما فعله ـ رحمه الله ـ عطفاً مميزاً.

وأذكر أني، وأنا صغير، أدخلت أصبعي في جحر في الأرض، وقرصني شيء، قد تكون عقرباً، وكان ذلك قُرب أذان المغرب، فاهتمّ بأمر إسكاتي من البكاء الذي ملأ البيت، ثم أخذني إلى الشارع، ووضعني على عتبة دكان «أبي غنّام»، وأخذ يُهدؤني، ويعدني بأنه سوف يذهب ويحضر لي «قعيِّداً» (حويراً).

وسكتّ، لأن ذهني انصرف بكليّته إلى هذا الوعد المغري، وأخذت أتخيل القعيد ولعبي معه، ولعبي عليه، ونسيت ما كنت أشكو منه، ولعل أغلبه كان رغبة مني في بقاء العطف، وليس الألم، وذهب هو ـ رحمه الله ـ إلى الصلاة، وقد نسيت الوعد بعد وقت قصير.

لا أدري إذا كان جدي قد تزوج قبل جدتي، ولكن كون أولاده وبناته كانوا أشقاء فهذا قد يدل على أن والدتهم هي أول زوجة له، وهو لم يتزوج غيرها. وأكبر أولاد جدي والدي، وهناك عمي إبراهيم، وعمي عثمان، وعماتي الثلاث: حصة وقد تزوجت محمد الناصر العوهلي، ولها منه ولد هو العم عبدالله، وتوفيت صغيرة نوعاً ما، وعمتي مضاوي أصغر من

عمتي حصة، وتزوجت حمد الإبراهيم القرعاوي، ولها منه ثلاثة أولاد: صالح وعبدالله وعبدالرحمن، وعمتي موضي ولم تتزوج، أما عمي عثمان فتوفي صغيراً، ولا أعرفه، ولا أعرف عنه شيئاً، ولا أدري ما سبب وفاته، وقد يكون مات سنة «الصخنة» ١٣٣٧هـ.

كانت بداية تعليم والدي في كُتَّاب صغير مُلاصق لبيتنا، في حي الهفوف، واسم صاحبه هو: «فلان الحيدان»، وقد يكون اسمه «سالم»، وله ابن اسمه عبدالله، خَلَفَهُ في المدرسة، ودرست عنده يوماً واحداً.

وحكاية دخول والدي كُتَّاب «الحيدان» علمت بها من قصة طريفة روتها لي عمتي موضي، قالت حدثت

الحادثة بين والدي والمطوع «الحيدان» الشايب، فقد ملأ والدي، مثل بقية الشبان في زمنه، وبعد زمنه، ساعديه وساقيه «بالقداح» (المكاوي)، وهي حروق تحدث للساق أو الساعد، وطريقتها أن توضع خرقة مطوية على العضو المراد كيّه، ثم يوقد أعلاها، وتأكل النار الخرقة تدريجاً حتى تصل إلى الجلد، فتنطفئ نتيجة لانتهاء الخرقة، وللبلل الذي أحدثه الحرق في الجلد، فيقشر الجلد المحترق بكل رباطة جأش، ويملأ مكانه «بطفو» (رماد) الخرقة، ويتم هذا أمام ملأٍ من الشباب، ليشهدوا شجاعة «المقدِّح».

وهذا العمل الوحشي وراءه اعتقاد بأنه يشدّ عضلات الساعد، فلا تهتز يد صاحبه عند الرمي بالبندق، وإذا كانت «القدحة» في «هبرة» (عضلة)

الساق فهي تضمن لصاحبها أنه لا يُغلب في سباق الجري، والمنطق يؤكد خلاف هذا، فهذا خلل في التكوين الطبعي للعضوين، مما يجعل كلاً منهما لا يقوم بعمله على الوجه الأكمل.

المطوّع و «قداح» أبي:

كان ساعدا والدي مملوءين بالقداح، والقداح من النوع «المعبّس» أي الذي انعقد مكان الحرق فأصبح ناتئاً مثل «العبسة» (النواة)، وهو مظهر متناه في الشجاعة، لأن بعض الشباب، وهو يُقَدّح يطفئ الوقدة قبل أن تصل إلى الجلد، ويكتفي من الحرق بما يمكن من قشر الجلد فقط.

كانت قداح والدي ملأى بالقيح «مستلطمة»، وكان المطوع كبير السن، ويجهده القيام لإسكات

ضجيج الصغار، والقضاء على شغبهم أو إهمالهم، أو تركهم الدرس والحديث بينهم، فيلجأ إلى وسيلة تفي بالغرض! لقد وضع بجانبه «جذماراً» يصل إلى أبعد تلميذ في المكان، ومع كبره، وضعف يده، وسوء تقديره للمسافات، وقصر نظره، وجه «الجذمار» (الرمح) إلى تلميذ مذنب في نظره، وبدلاً من أن ينزل الرمح على ذلك التلميذ أنزله على قداح والدي، «فماعت كبده» من الضربة على القداح، وأحرق قلبه الألم، وجنّ جنونه من الوجع، وهاله الدم الذي «ثعور» (اندفع) على كمّه، واندفق كأنه نافورة، فقفز والدي من مكانه، وانقضّ على الشائب عضّاً، وانهال عليه ضرباً وركلاً، وكان يبكي من الألم، فتبعه المطوع بالبكاء مما جاءه، وأخذ الاثنان يبكيان، وعمت الفوضى المدرسة، وعلا الصراخ، فلفت هذا

سمع عمّة أبي، واسمها مريم ـ رحمها الله ـ فأسرعت، وأنقذت الموقف وفكت الاشتباك، وسحبت والدي خارج المدرسة، وأعادته إلى البيت، ولا أدري إذا كان الوالد قد عاد إلى المدرسة مرة ثانية أم لا.

من المؤكد أن والدي قد تابع دراسته بعد ذلك، بدليل ما وصل إليه من معرفة، وجمال أسلوب، وحسن خط، كانت ثقافته متقدمة، وكان متحدّثاً لا يُمل مجلسه، ولا أدري إذا كان قد التحق بحلقات تدريس في الجامع، أو في الأحساء أو في البحرين أو في الهند.

لم يكتف ـ رحمه الله ـ بتثقيف نفسه، بل كان يساعد بعض أصدقائه ليتعلموا، وقد أخبرني العم علي العبدالعزيز العجروش ـ رحمه الله ـ وهو أحد

موظفي المالية في مكة، أن والدي هو الذي علمه القراءة والكتابة في الهند حيث تزاملا هناك.

وقياساً على ما كان متبعاً في تلك السنين لابد أن والدي كان يساعد جدي مساعدة محدودة في أول الأمر، في حدود سنّه وطاقته، ومن هذه المساعدة ذهابه إلى «حائط» (مزرعة) جدي المسماة في وقت من الأوقات بحائط الدرويش، ثم وجد فيها بعد أنه خير له، مثل غيره أن يسافر خارج البلاد، لأن تعبير أهل نجد عن هذه الحالة: «نجد تلد ولا تغذي».

وأكثر أهل عنيزة في ذلك الوقت كانوا يذهبون إلى «أبو عينين» (الجبيل)، أو الأحساء، وميناءها العقير، وبعضهم يذهب إلى البحرين أو الكويت أو البصرة، وبعضهم مثل «عُقَيل» ذهبوا إلى الشام.

وقد استقرت أسر من آل ذكير وآل البسام وآل قاضي، وآل زامل وغيرهم من أهل عنيزة، في الخليج، وفي الهند، وكوّنوا ثروات مكنتهم من العيش الرغيد، فأفادوا أنفسهم، وأفادوا عنيزة وأهلها، وكانوا في الغربة خير مضيفين لمن يأتي إليهم هناك من أهل بلادهم، وأصبحت معاملتهم هذه تجعل الشباب لا يتهيب من الذهاب إلى هذه البلدان، خاصة الهند، مع أن لغتها أعجمية، ومن أبرز من كانوا يساعدون القادمين عبدالله الفوزان في الهند، وكان هناك كأنه سفير فخري لبلاده.

سفر والدي للهند:

استأجر جدي ـ رحمه الله ـ لوالدي بعيراً يوصله إلى الأحساء، ومعه ابن عمته محمد العتيبي، بسبعة

عشر ريالاً فرنسياً (ماري تريزا). ولما وصل محمد إلى البحرين بقي بها، ثم انتقل إلى الكويت، حيث فتح الله عليه أبواب الرزق هناك، وحظي عند حكامها، وصار من أبرز الشخصيات، وأحد أبنائه، عبدالعزيز وصل إلى منزلة مرموقة، إذ أصبح أميناً عاماً لمجلس الوزراء إلى أن تقاعد.

وقد انقطعت أخبار محمد العتيبي عنا، إلى أن سافر أخي حمد وابن عمتي عبدالله الحمد القرعاوي إلى مصر للدراسة، بعد أن تركتُها إلى لندن، وأخذ ابن عمتي يسأل عن محمد هذا، فعلم أنه في لبنان، فتتبع أخباره هناك، وسافر هو وأخي حمد إلى بيروت، فعلما أنه في قرية هناك، فزاراه، وأعادا الصلة الأسرية برؤيته، فبقيا يترددان عليه، ويذكران أن به شبهاً

كبيراً من الوالد، وبالذات صوته، وقد لاحظت ذلك في صوت ابنه عبدالعزيز، وهذا التلاقي كان في عام ١٣٧٣هـ الموافق ١٩٥٣م حسب إفادة أخي حمد حديثاً.

أما الوالد - رحمه الله - فقد واصل رحلته إلى الهند، والتحق بخدمة أحد أفراد أسرة البسام هناك، وسهل هذا القرابةُ التي تجمعنا بهم، وهم تجار بارزون هناك، فوجد المجال مهيأً له ليخدم في حقل التجارة، ويستفيد خبرة، مما أهله فيما بعد أن يكسب ثروة، وأن يشارك أحد أفراد أسرة آل بسام في تجارته.

وقد لفت نظر من عمل معهم، أوْلَهم، بأمانته، وحسن تصرفه، وإخلاصه للعمل وأربابه، فأخذ يتقدم عندهم، وينال ثقتهم، فكان يستشار، ويؤخذ

بمشورته، ويبدي ملاحظات للتطوير والتحسين ويُتقبل منه، وقد لاحظ أصحاب العمل أنه منذ أن كان في أول خدمته أبدى استعداداً وفهماً، حتى أن شخصاً سأل صاحب العمل عن أحسن قماش من نوع البفت، ليشتريه للتجارة والرحيل به إلى بلاده، فقال له: إسأل عبدالله، فلما سأله قال له: «القاعدة الذهبية هي أن القماش كلما زاد بياضه فهذا دليل على جودته»، فهو بهذا لم يجبه برأي فطير، أو يضع أصبعه على ماركة بعينها، ويقول له: هذه، وإنما أعطاه رأياً ناضجاً، وقاعدة عامة يستفيد منها في كل قماش يقدم على شرائه، ولاشك أن هذه القاعدة لم تأت إلا نتيجة علم وتجربة، ونباهة في الملاحظة.

وأصبح ـ رحمه الله ـ في مرحلة من المراحل

مسؤولاً عن البضائع في الموانئ المورد إليها، والمصدر منها، وهي مهمة ليست سهلة، وتحتاج إلى نشاط متواصل، وحسن سياسة وتصرف، ومعرفة بالناس، وطبائعهم، ومعرفة بالطرق الملاحية وشركاتها، وما يسبق ذلك ويتبعه من خطوات، وهذه في حد ذاتها ثقافة واسعة، ومهمة ومتجددة، وقد نفعته هذه المعرفة عندما عاد إلى المملكة، فالهند في تلك الأيام بالنسبة لجزيرة العرب والخليج وعدن هي العالم كله، ولهذا لم يكن عسيراً عليه أن يختار البضاعة الرائجة المطلوبة، ويعرف مصادرها، وتكاليفها، وإلى أين تُوجه، ومن أي طريق تُجلب، ويعرف اتجاهها، والسوق المناسب لها، والوقت المختار لبيعها.

ووالدي - كما علمت - سافر من عنيزة وعمره في

حدود اثنتي عشرة سنة، ولم يَعُدْ من الهند إلا وعمره أربع وعشرون سنة، وهذا أمر معتاد، وليس غريباً على شباب أهل عنيزة وغيرهم من بلدان القصيم في تلك الأيام، يذهب الواحد منهم وامرأته حامل، ويعود وقد ولد له حفيد. وقيل لي إن والدي عندما عاد خطب فتاة من البسام، ولكن طلبه لم يُجب، فتزوج والدة أخي محمد ابنة سليمان المحمد المزيد العمرو، وعندما عدت من انجلترا بحثت عن زوج[1]، وكنت أسمع عن فتاة متعلمة من أسرة آل بسام قبل سفري، فتقدمت لخطبتها، ولكن طلبي لم يُجب، لأني أسكن الرياض، وهي تسكن بلدة أخرى، ولم ترد والدتها أن تفارقها ابنتها، أما ابني فلم يخطب من البسام وإنما

(١) المقصود «زوجة»، وقد أفاد أحد المتضلعين باللغة أنه لم يرد باللغة العربية الفصحى كلمة «زوجة» وزوج للذكر والأنثى.

خطب من أسرة الدامر، وقبل طلبه، وأنا أكتب هذا بعد اقترانه بزوجته، جعل الله السعد قرينهما.

بعد عودة الوالد من الهند:

قام الوالد بعد عودته من الهند بعدة رحلات داخل المملكة للتجارة، وكان عنده قوافل، بعضها يتجه إلى الأحساء وإلى «أبو عينين» (الجبيل)، وكانتا مركز الإزدهار في شرق الجزيرة العربية، وبعضها يذهب إلى الكويت، وبعض هذه القوافل تحمل «هدماً» وبعضها «سمناً»، وغير ذلك مما كان له حركة تجارية في الأسواق.

وسمعت أنه في إحدى رحلاته تلك، توقع أن «شيلان» الصوف سوف يرتفع سعرها، فاشترى منها كمية كبيرة، ثم باعها فيما بعد بربح وفير، بعد

أن قل واردها أو انقطع، وقد فعل مثل ذلك عند قيام الحرب العالمية الثانية، إذ اشترى من «الغرش» و «الصيني» أوعية كثيرة، واشترى من المربيات أيضاً، ثم أوكل أمر بيعها وهو في الرياض مديراً للمالية إلى شخص وثق فيه في مكة وليس من أهلها، ولكن ثبت أنه ليس محلاً للثقة، لأنه بمجرد أن بدأ السوق يتحرك باعها، دون علم الوالد، وتصرف بثمنها وضيّع الأموال، ولما انتهى الوالد من العمل في الرياض، وعاد إلى مكة، اكتشف ما حدث، وبدأت مشاكل لم تنته إلا بعد وفاة الوالد ـ رحمه الله ـ .

وقد سأل الملك عبدالعزيز الوالد هل صحيح أنه يتعاطى التجارة؟ قال الوالد نعم، لأنها هي التي «ترفد» مصاريفي، ولكني أتاجر في شيء لا يدخل

فيما تشتريه الحكومة، وإذا رأيتم ـ حفظكم الله ـ أن أوقف تجارتي أوقفتها، فقال له الملك عبدالعزيز، لا، بل استمر وبارك الله لك.

وقبل أن يلتحق بالدولة، كان عنده أسطول من الإبل، نصفه «يصدر» ونصفه الآخر «يحدر»، وكان النشاط التجاري البارز والمزدهر خارج المملكة مع الكويت، وكانت هذه في رحلاتها المتكررة، والموسمية المنظمة تحمل أكثر ما تحمل سمناً، وأرزاً، وسكراً وشاياً، وقهوة وهيلاً، وغير ذلك مما يحتاجه السوق هنا أو هناك.

وحدث أن عاملاً سياسياً تعرض سبيل التجارة بين المملكة والكويت، بسبب تسرب المؤن من الكويت إلى حائل، وفيها ابن رشيد، وهي في جانب العثمانيين،

والعثمانيون هم أعداء الإنجليز، وكان العداء في تلك الأيام على أشده، والإنجليز مسيطرون على طرق التجارة البحرية، وغاظهم أن يصل إلى عدوهم من الأرزاق ما يقويه، وهددوا بأن يحولوا دون وصول البضائع إلى الكويت، خاصة الحبوب، إذا لم يعالج أمر وصول الأرزاق إلى حائل، فاضطر الملك عبدالعزيز لإبعاد التهمة عن رعيته من التجار إلى منع السابلة مع الكويت، فامتنع التجار ظاهراً، ولكنهم باطناً استمروا في الجلب عن طريق التهريب، ومن جملة هؤلاء الوالد، رغم أن العقاب كان قاسياً، قد يصل إلى القتل، وقد يكون الملك عبدالعزيز يعرف عن هذا التهريب، ولكن يهمه رسمياً أنه وقف موقفاً يسد باب التهمة، ويظهر الشدة تأكيداً لموقفه الرسمي، على أي حال هذا ما كان الناس يتناقلونه في تلك الأيام عن أسباب المنع.

ومن الحيل التي كان الوالد يلجأ إليها في تغطية ما يجلبه من الكويت أن القافلة إذا قطعت الدهناء جعل وجهتها رأساً إلى القصيم، وهناك تختبئ في أحد الأودية إن وصلت قبله، أما هو فيتجه إلى الرياض، ويظهر نفسه في سوقها، ويأخذ من تجار عنيزة الذين في الرياض ما قد يكون لديهم من خطابات لذويهم في عنيزة، أو «وصول» (طرود)، ويسارع إلى اللحاق بالحملة التي سبقت مع الجمّالين، ثم يقسمها قسمين: قسماً يدخل به عنيزة مظهراً أنه قادم به من الرياض، بدليل الخطابات والطرود التي أحضرها معه، ثم يبقى في عنيزة أسبوعين أو ثلاثة أو شهراً، ثم يأخذ القسم الثاني، من أحد الأودية، ويذهب به إلى الرياض، ومعه خطابات وطرود لأهل عنيزة في الرياض من أهلهم في عنيزة، أو من التجار الذين يتعاملون معهم،

وعلى هذا تبدو الحملة وكأن منشأها عنيزة!.

وقبل أكثر من أربعين سنة كنت أقص القصة على أحد الحاضرين في المجلس، فذكر أن الملك عبدالعزيز كان يعلم بهذا التهريب، وأنه كان يباركه باطناً، لأنه مفيد للأسواق في المملكة، وفي الوقت نفسه يبدي في الظاهر أنه مستجيب لطلب الحكومة الكويتية، التي تريد أن تتفادى تصرف الإنجليز تجاهها، ولكنها في الوقت نفسه لا تريد أن تحرم شعبها من هذا المورد المفيد لهم، والله أعلم بالحقيقة.

قصة الوالد مع الدرويش:

يروي الوالد ـ رحمه الله ـ قصة طريفة، كالحلم، وقعت في إحدى رحلاته التي كان يقوم بها في تنقله بين العارض والقصيم، فيقول:

كنت مع صحبي على الإبل، سائرين من الرياض متجهين إلى القصيم، وكانت الشمس تدنو للمغيب، فلاحظت[1] على يميني، على مسافة ليست بعيدة، حركة لم أميزها جيداً، فهي ليست ذيل «حصني» (ثعلب)، ولا طرف ذيل حيّة، وجعلني حب الاستطلاع أعطف ناقتي إلى تلك الجهة، ولدهشتي الشديدة رأيت هندياً في حفرة، وما رأيته هي يده، لأنه، لضعفه، لما سمع رميل الإبل، وأصواتها، وأصوات راكبيها، لم يستطع أن ينهض، فاكتفى بإخراج يده، وقد حفر هذا «الدرويش» هذه الحفرة قبراً له ليموت فيه، أملاً في أن لا تتنبه له السباع فتمزق جسمه، وتأكله.

كان هذا الهندي في طريقه إلى الحج كما هي عادة

---

(١) على الرغم من أنه ـ رحمه الله ـ كان بعين واحدة، فإن نظره كان قوياً، وإلى آخر حياته لم يكن يحتاج إلى نظارة للبعيد.

الدراويش، إلا أنه ضل الطريق، وفقد الزاد والماء، فأخذ منه الجوع والعطش مأخذه، وأيس من أن يُنقذ، فأيقن بالموت جوعاً وعطشاً.

عرض عليه الوالد أن يأخذه معه إلى عنيزة، ومن هناك يذهب إلى الحج مع إحدى قوافل الحج المعتادة، التي تنطلق كل عام من عنيزة إلى مكة، ولا تخلو من بعض الدراويش، الذين يتعلقون بها ويحتمون، ويضمنون أن يصلوا إلى مكة بسلام، لا يفكرون في طعام ولا شراب، فهذا متوافر لهم ضمن مجموعة الحجاج في القافلة، وهم في القافلة يأمنون من غارات الأعراب.

فشكر الوالدَ على هذا العرض، إلا أنه قال: عندما تصلون أول مورد ماء، اتركوني هناك، وسوف آخذ

طريقي إلى مكة، إن شاء الله، فاستجابوا لرغبته وتركوه عند أول مورد وردوه.

وبعد ثماني سنوات كان والدي في رحلة من رحلات الرياض أو الأحساء إلى القصيم مع جماعة من مواطنيه على إبلهم، فلاح لهم في الليل ضوء من بعيد، وتبين أنهم جماعة جلوس حول نار أوقدوها، فطلب الوالد من أحد الذين كانوا في القافلة أن يذهب، و «يتحرى»، من بعيد، ليعرف هل هؤلاء الناس حضر أم بدو، فإذا كانوا حضراً «ألفوا» عليهم، وإن كانوا بدواً تجنبوهم، لأن الاقتراب منهم غير محبب، فذهب الرجل، وتبين له أنهم حضر، وأنهم من أهل عنيزة، فنزلوا عندهم في تلك الليلة.

وبعد أن أناخوا إبلهم بدقائق قام أحد الجماعة،

وأخذ ناقة الوالد، وابتعد بها وعقلها، وأنزل من فوق ظهرها الرحل بعد أن برد ظهرها بعد الرحلة، كما هو المعتاد بعد النزول، وفرش فراشه، وعاد ليقعد مع القوم، ولم يستغرب والدي هذا التصرف الحسن، وظن أن هذا أحد «صبيان» القوم، عرفه فخدمه، تقديراً لمقامه، وإعزازاً لأسرته، ووضع هذا الرجل ماءً في الإبريق، وجعله بجانب الفراش، وعند أذان الفجر ملأ الإبريق مرة أخرى، وبه ماء ساخن، وأحضره للوالد ليتوضأ منه، لم يلفت نظر الوالد هذا التصرف، وفسر هذا العمل بما فسر به العملية في الليلة البارحة، فلما صلّوا الفجر اجتمعوا حول النار، ولم يظهر النور بعد، ولم تتبين الوجوه جيداً، ومن عادة القوم أن يجلسوا وهم ملثمون، وبعضهم بعيد بعض الشيء عن النار، وفجأة خاطب

هذا الرجل الوالد، باللغة الهندية قائلاً:

هل عرفتني يا صاحب؟

فقال والدي: لا، هل سبق أن قابلتك؟

قال الهندي: نعم.

قال الوالد: أين؟ في دهلي؟ (دلهي).

قال الهندي: لا.

قال الوالد: في مكة.

قال الهندي: لا.

فاحتار الوالد، وسأله:

أين قابلتك إذن؟

قال الهندي: قابلتني في البر، أنا الرجل الذي أنقذتَهُ قبل ثمان سنوات من الموت، وأوصلتني إلى بر النجاة.

فقال الوالد له: ألم تتب من هذه المخاطرات، وقد جربت هذا الأمر في رحلتك تلك، واكتويت بنار الصحراء؟

قال الهندي: لا، لي الآن ثماني سنوات، وأنا أطأ هذه الطريق، أذهب من مكة إلى الهند، على قدمي، وقد تأخذني الرحلة ستة أشهر، ثم أعود من الهند على قدمي إلى مكة برحلة قد تصل إلى ستة أشهر.

وبقاء والدي ـ رحمه الله ـ في الهند السنوات الطويلة جعله يتقن اللغة الأردية، وكان بعض من كان معه في الهند وعادوا يتكلمونها، ومن بين هؤلاء الشيخ عبدالله السليمان الحمدان ـ رحمه الله ـ وكان إذا اجتمع به الوالد يحلو لهما التحدث بها، أما حمد السليمان ـ رحمه الله ـ فكان أقل إجادة

منهما، لأن إقامته في الهند لم تكن طويلة.

وبقي والدي متعلقاً بالتجارة، ومعها الإبل، وهذا جعله يقضي وقتاً غير قصير في البر، وبقاؤه هناك يعطيه فرصة شراء الإبل الجيدة، ويتخلص من الرديئة أو التي أسنت. وصادف أن تأخر مرة في البر إلى حد أقلق والده، جدي، فأخذ يسأل عنه الوافدين من البادية، للجلب والميرة، أو شراء جمال مجلوبة، فسأل جدي واحداً منهم يتوقع أنه آتٍ من الجهة التي يعتقد أنه في حدودها، فأخذ الأعرابي يستقصي من جدي صفات والدي، وكان آخر سؤال سأله:

هل هو كريم العين؟ أهو «شلقة الرجال»؟ أي نحيفاً.

قال جدي: نعم، هو كذلك.

قال الأعرابي: رأيته قبل عشرة أيام في المورد الفلاني مع إبله.

ولأن الوالد «كريم العين» كما وصفه الأعرابي، أي بعين واحدة، فكان عنده «دربيل» (ناظور) بعدسة واحدة، تدخل أجزاؤه في بعضها عند الغلق، وتمتد عند فتحه، وله جراب جلد مناسب له، وهو عندي الآن، وعمره أكثر من قرن، ولايزال يقرّب الأشياء، وهو عزيز عليَّ، وطالما أخذته، وأخذت أنظر به وإليه، لأنه طالما قبّل عين والدي ـ رحمه الله ـ مئات المرات على ما أتصور، ولا وجهته في يوم من الأيام إلا وتذكرت هذا، أنظر إليه

وأتمنى أنه ليس بجماد، وأن له أذناً ولساناً، أخاطبه فيسمع مني، ويرد عليَّ، فأسأله من أين اشتراه، وما قيمته حينئذ؟ وأهم من هذا، على ماذا وجهه، وكأني به يتابع رعي طائفة من إبله: هذه شذّت، فيجب أن تُعاد إلى أخواتها، وكأني به قاعد على مرتفع يرقب مجيء رسول أرسله ويتوقع عودته، وكل «زول» يلوح يقول هذا هو، ويقول «الدربيل»: لا، ليس هو، أو مجيء قافلة مقبلة بحملها من إحدى الجهات. إن في هذه العدسة الجامدة مخزوناً من المواقف، آه لو نطقت، لأطربت وأبهجت.

ووالدي ـ كما علمت ـ فقد إحدى عينيه في الهند، أثناء إقامته هناك، فقد أصيبت العين

بمرض جعل الوالد يبحث لها عن علاج، فرأى هندياً على الرصيف يبيع كحلاً وأدوية للعيون، فأعطاه دواء قضى على عينه، والمظنون أن الهندي قد وضع مع الدواء شيئاً من ملح البارود حتى يكون حاراً مؤلماً على قاعدة «ما حرّك داواك»، فأصبحت: «ما حرك أعماك»، وبقيت عينه مطفأة النظر، بارزة الحدقة بشكل واضح، وعندما جاءني في لندن، في آخر عمره، كانت حالته الصحية لا تسمح لي بأن نحاول أن نركب له عدسة تحسّن منظر العين، فبقيت كما هي إلى أن توفي في مكة، في حي العتيبية، يوم الأحد الساعة ٢,٤٥ غروبي صباحاً، في ١٨/ ٥/ ١٣٧٨هـ ـ رحمه الله رحمة الأبرار، وأسكنه فسيح جناته ـ .

ومما يدخل في سيرته ـ رحمه الله ـ أمر طريف، يظهر حرصهم على بعض مقتنياتهم الثمينة معنى أو قيمة، تقول الوالدة أنه في إحدى سفراته انفرطت سبحة كهرمان ثمينة عنده، وعزيزة عليه، فلما رجع من السفر أعطاها الوالدة لتنظمها له، فوجدت أن حبة واحدة تنقصها، ولا يدري هو أين ذهبت، ولعله يئس منها، واعتقد أنها سقطت في الرمل، مما يجعل العثور عليها مستحيلاً.

وفي رحلة لاحقة، وبعد أن بَعُد عن عنيزة يوماً ونصف يوم من السفر وجد حبة الكهرمان في جيب ثوب السفر الصوف، فأركب «ندّاباً» إلى عنيزة ليوصلها إلى البيت، لتسلم للوالدة،

لتتمكن من إكمال السبحة بها، وقد روت لي هي هذه القصة.

دخول الوالد الوظيفة :

استمر والدي ـ رحمه الله ـ في تجارته بالطريقة التي ذكرتها إلى عام ١٣٥٢ أو ١٣٥٣هـ، قبل أيام قيام الحرب بين الملك عبدالعزيز والإمام يحيى حميد الدين، إمام اليمن حينئذ، وقد تعين الوالد مديراً عاماً للمالية في مكة، وكان موقعها «أجياد» مكان المؤتمر (المعتمر) ولذلك سبب، وهو أنه ـ رحمه الله ـ كان صديقاً للشيخ عبدالله السليمان الحمدان، منذ أن كانا صغيرين في عنيزة، وتوطدت الصداقة بينهما عندما سافرا إلى الهند والبحرين، ثم الأحساء، عندما

كان الشيخ عبدالله السليمان تاجراً هناك.

ومن خطاب اطلعت عليه من الشيخ عبدالله تبين أن الوالد قد سلّفه مبلغاً يساعده في تجارته، وكان الشيخ عبدالله بطبيعته كريماً، فتح بيته في الأحساء، يستضيف فيه القادمين إلى الأحساء من أهل عنيزة، وما أكثرهم، رغم قلة ما في يده، واقتراضه لتجارته.

والطرافة أن الوالد لما عاتبه على هذا الكرم الزائد عن حده، رد عليه بخطاب يقول في مطلعه:

سيدي العم عبدالله ابن سيدي العم علي الخويطر..

ثم شرح أسباب فتح بابه للناس، وأن أهل عنيزة «يبشرون الوجه»، فيما لو لم يفتح باب بيته، وختم الخطاب بقوله:

خادمكم عبدالله السليمان الحمدان.

وبعد ما يقرب من عشرين سنة انقلب الأمر، وكتب الوالد خطاباً لرئيسه الشيخ عبدالله السليمان الحمدان يقول في مطلعه:

سيدي العم عبدالله السليمان الحمدان.

ويختمه بقوله:

خادمكم عبدالله العلي الخويطر.

هذه الصداقة القديمة التي بين الوالد والشيخ عبدالله، جعلت الشيخ عبدالله، بعد أن خلف

أخاه محمداً في خدمة الملك عبدالعزيز، بجدارة، يلتفت عندما قامت الحرب مع اليمن إلى بعض التجار القادرين في ذلك الوقت، ومنهم الوالد وابن مبيريك والشريهي، ليوفروا أموالاً وإبلاً وسمناً للجيوش المرسلة، لأن المالية ليس فيها ما يكفي، فأخذ من الوالد الإبل والسمن الذي عنده، ونقداً له في الهند، ووعده أن يوفيه حقه بعد الحرب، وانتهت الحرب، ولم يتوافر مال للوفاء به، فاقترح الشيخ عبدالله على الوالد أن يكون مديراً للمالية بمكة، وهي أكبر الماليات حينئذ، وأن يحاول أن يوفر ما يمكن أن يسدد تدريجاً دَيْنَهُ، ولعل الوالد لم يكره أن يترك التجارة التي تقتضيه السفر، وفضّل الاستقرار بعد أن تغير وجه التجارة كليةً، ورجح ميله إلى

قبول الوظيفة أن العمل سوف يكون في مكة.

وكانت المالية تسمى «الخزينة الخاصة» ومعها «مصلحة اللوازمات»، وفكرة مسك هذا العمل، وبذل الجهد للتوفير، أمر جذاب نظرياً، ولكن عملياً الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ كان يصرف أكثر مما يدخل عليه، فالمالية دائماً مطلوبة، وابن سليمان يقترض ثم يسدد، ثم يقترض ثم يسدد، وهكذا لم يجد الوالد فرصة للتوفير، ولم يحصل على شيء من ماله إلا بعد أكثر من عشرين عاماً بمساعدة من الشيخ عبدالله السليمان، بعد أن اكتشف البترول وبدأت الخزينة تستغني عن الاستلاف.

ومساعدة الشيخ عبدالله لوالدي في استرداد

أمواله بعد التقاعد، جاءت عندما صدر الأمر بتسديد هذه الأموال، وقال له المسؤولون في المالية:

إنك دفعت المبلغ في الهند بالروبية، وسوف ندفعها لك بالروبية هناك، فقال:

دفعته هناك والروبية أعز من الريال، واليوم الهللة أعز من الروبية.

فلجأ عند هذه المرحلة إلى الشيخ عبدالله، واستنجد به، وخاطبه - كما رأينا - بسيدي، وختم الخطاب له بكلمة: خادمكم، فجاءته النجدة من الشيخ عبدالله، وأمر أن يصرف المبلغ بالريال السعودي وفي المملكة - رحم الله الجميع -.

كان الوالد لا يطيق الدخان وشربه، وينصح

من يدخن بالإقلاع عنه، ويبين له أضراره المادية والمعنوية، ورأى والدي في لبنان، وهو في طريقه للعلاج في لندن، شخصاً يعرض على شخص آخَرَ سيجارة، ويلح عليه في أخذها، فنهره الوالد، وقال له: من يراك تلح يظن أنك تعرض على صديقك تفاحة، والشيخ عبدالله السليمان ـ رحمه الله ـ تقديراً للوالد، كان لا يدخن عندما يزوره الوالد، والوالد من جانبه لا يطيل الزيارة.

بقي الوالد في الخزينة الخاصة في مكة، ثم انتقل إلى المالية في الرياض مديراً لها، ثم مديراً للمستودع بعدها في مكة إلى أن أحيل على التقاعد، عندما أقفل المستودع، واستعيض عن إعطاء أرزاق إعطاء مخصصات نقدية،

وكان هذا بعد أن أصبح دخل البترول مجزياً، ويتحمل مثل هذا الترتيب، وهذا مظهر يُعد قفزاً في التطوير.

وصفة الوالد ـ رحمه الله ـ إضافة إلى ما سبق أن ذكرته، أنه متوسط القامة، لا طويل ولا قصير، وكان حاد النظر قويه في عينه اليمنى، وبيده اليمنى انحناء عند الرسغ، نتيجة كسر جُبِّرَ تجبيراً خاطئاً، وبقي هذا معه إلى آخر حياته، ومع هذا فلم يؤثر بحال من الأحوال، على جمال خطه واتساقه، وكانت قاعدته في الخط تتشابه كثيراً مع خط العم سليمان الصالح البسام واخته الكريمة منيرة الصالح البسام، حتى لا يكاد الناظر في خطوطهم أن يميز واحداً من

الآخر، ولا أستبعد أن مدرسهم واحد.

أعود إلى ارتباط الوالد بالتجارة والإبل، بعد أن أبعدني الاستطراد حتى أوصلني إلى تقاعد والدي.

كان للوالد رعاة لإبله، ومعه جمّالون في رحلات التجارة، وأذكر بعضهم، وسوف تأتي أسماؤهم عندما يأتي الحديث عنهم.

عندما دخل الوالد الوظيفة اضطر إلى أن يبيع ما تبقى من الإبل التي يملكها، وأوكل أمر بيعها إلى العم محمد الناصر العوهلي، فكان يؤتى بها من البادية وتوضع في حوش في: حي «الصويطي» قبل إنزالها إلى السوق وعرضها، وكان يؤتى بها ثلاثاً ثلاثاً، أو أربعاً أربعاً، وأذكر

جيداً هذا الحوش لسعته، وكان ما لا يُباع يُعاد إلى هذا الحوش.

كان مع هذه الإبل بعير الشداد، وهي التي يركبها الراعي، الذي يوكل إليه إحضار الإبل المجلوبة من البر إلى عنيزة لبيعها، وكانت هذه «الذلول» شعلاء هادئة ونظيفة، ولها عينان كحلاوان، وكنت أركبها من «الصويطي» إلى «المجلس» في وسط عنيزة، حيث يُحَرَّج على الإبل وتُباع، وعندما ركبتها لأول مرة وجدت نفسي في اليوم التالي لا أكاد أمشي من الألم في أفخاذي، وفي الوركين، ولكن هذه الآلام سرعان ما اختفت، وتعوّدت على الركوب دون معاناة.

ومن الرعاة الذين لا أزال أذكرهم، وأذكر

طيبهم، ورقتهم، ومساعدتهم لي في الركوب وفي النزول، «فالح»، وأظنه شمّري، لأني كنت معجباً بلهجته، وهي أول ما حببني للهجة أهل حائل إلى اليوم، وراعٍ آخر اسمه «محيجين»، وكان هذا راعياً عند الوالد منذ زمن طويل، وقد حج مع الوالد عندما حج محرماً لعمتي حصة، وكانوا يذكرون عنه، بتعجب واستلطاف، حين رأى أن المسافرين يكتبون لأهلهم، وهم في الطريق، رسائل يرسلونها مع أناس عائدين لعنيزة، معددين سلام الحاضرين، وأنهم أتوا على اسم كل واحد فقال لهم محيجين: الضبيب المربوط بطرف الشراع لا تنسون ترسلون سلامه، فضجّوا بالضحك.

وفالح جاء بعد محيجين، وحل محله، وأذكره جيداً، وهو الذي عاصر بيع الإبل، وأذكر أننا استفدنا من إبريق أزرق كان يستعمله، وكأنه أمامي بما فيه من ضربات و «قشوع»، وكان اسمه إبريق فالح، وكان من نوع «الغرش»، وقد خصص هذا الإبريق للنساء ولنا نحن الصغار. وما يبقى لنا من الشاهي الذي فيه بعد النساء إلا «ثنوة» أي ما يبقى من «الحثل» بعد ذلك يزاد عليه ماء وسكر، ونشربه نحن على أنه شاهي!!.

وأذكر راعياً ثالثاً اسمه «مطلق»، وصورته أمام مخيلتي الآن، لأنه خدعني، فقد كان «أدلعاً» أي ليس في ثوبه أزارير، وبقي «جيبه» مفتوحاً، وساومني إن أنا أعطيته إزراراً، فإنه سيحضر

لي في رحلته القادمة جربوعاً، فقطعت له من ثوبي إزراراً، والجربوع لم يأت إلى اليوم، وذهب أدراج الرياح مع مواعيد عرقوب، ولا أزال انتظر وفاء مطلق بوعده في إحضار الجربوع، ووعد الوالد لي بإحضار حويّر بقي وعداً، والفرق بين الوعدين أني لم أنس الجربوع، وإن كان الأمر فيه لا يصل إلى الجمرة التي في صدر ابن سليمان، والتي سوف أتحدث عنها عند الحديث عن ابن سليمان، أما الحوير فقد نسيته سريعاً.

عندما أتذكر هؤلاء الرعاة، وهؤلاء الجمّالين، ومعاملة الوالد لهم، أشعر باحترام لهذه المعاملة التي كانوا يُعامَلُون بها، فليس بين الخادم والسيد فرق آنذاك، كلهم يعملون في البرّ سوياً

على قدم وساق، وفي المدن يجلسون حيث ينتهي المجلس بهم.

جهاز الريح «البنديرة»:

هذا جهاز صغير غير معقد، يميل إلى البساطة، ولكنه متقن الصنع، يظهر اتجاه الريح، وقد وضع على أعلى سطح في بيتنا، ولا أدري ما هي أهمية معرفة اتجاه الريح، وإن كنت أسمع في تلك الأيام الكبار يتحدثون أن الهواء اليوم شمال، أو نسري، وما إلى ذلك، وقد يكون انتشر مثل هذا الجهاز في تلك الأيام بين الشباب، والشباب يقلد بعضهم بعضاً، وينافس بعضهم بعضاً.

لقد بقي في مكانه، ومع الوقت تأثر بفعل الرياح والشمس، ولم أر أحداً اهتم به إلا عمي

إبراهيم مرة أو مرتين، ثم نقل بعد أن اشترى الوالد بيت «الفهد»، وتُرك في البيت بعد أن أصبح من سقط المتاع، وفي ذلك الزمان كنا نرى مثله كثيراً على أسطح بعض البيوت، وهذا يعني أن وجوده كان مزدهراً آنذاك.

والدي والحَمام:

ومما يدل على أن والدي يتابع هوايات الشباب في وقته، ويحاول أن يبز أقرانه بما يتسابقون في مجاله، تربيته للحَمام، لقد لاحظت أثر بناء صغير في السطح، في جدار مواجه للجهة الشمالية، وقد أوحى لي بأنه بيت لداجن من الدواجن، وسألت عمتي موضي ـ رحمها الله ـ فقالت إن والدي عبدالله كان يحب «تربية

الحَمَام»، وقد بنى لها هذا المكان، وفتح لها فتحة في الجدار المطل على حوش البقرة، ورخّمه برخام عن طريقه تهتدي الحمام إلى «مخفقها» الذي مد عليه خشبة ناتئة يحط عليها الحمام قبل دخوله إلى بيته، وعندما يطير منه.

وكان ـ رحمه الله ـ في فترة من عمره، يشارك في كل نشاط يهتم به من هو في سنه، ومن جملة ذلك تربية الحَمَام وهي هواية جميلة، ولها أصول وقواعد، والحَمَام أنواع، ولكل نوع صفة وفائدة وقيمة، هذا «مغيب» الذي يعتلي تدريجاً في السماء حيث يغيب، وهذا «حرامي» الذي يسرق حَمَام الآخرين، ويأتي بها إلى بيت صاحبه، وهذا «المولد» كثير البيض والفراخ، وهذا «الزاجل»

الذي ينقل الرسائل، وهذا «مُسَرْوَل» الذي على ساقيه ريش، وهذا، وهذا، وكل نوع محط مفاخره، وكلما زاد العدد منه زاد التفاخر والاعتزاز.

ويغيب عن الإنسان ما قد يكون في هذه الهواية من أخطار حتى يعرف بعض التفاصيل عنها، وغالباً تأتي التفاصيل عن طريق مجال المفاخرة والاعتزاز، ومن الأخطار التي أقدم الوالد ـ رحمه الله ـ عليها، أنه كان يأخذ «السَّبوق» من الحمام زوجاً أو زوجين ويذهب بها إلى مدينة «بريدة»، فيطلقها هناك في وقت يحدده، ويوصي شخصاً في عنيزة في البيت بأن يخبره بوقت وصول الحَمَام، ويعود الوالد، سيراً على

الأقدام، إلى عنيزة، وغالباً ما يضطره الوقت إلى النوم في الطريق، ويبدو أن جدّي كان لا يمانع في هذا النشاط، فقد كانوا يحبون المخاطرات من الصغار على مبدأ «رعونة الصغير شجاعة في الكبر».

ويدل على أن جدّي كان راضياً بهذه المخاطرة أنه، في إحدى هذه الرحلات، ذهب مع الوالد صبي لم يتعود على مثل هذه المجازفة، فلما أظلم الليل عليهما، والمسافة لا تقل عن ثلاثين كيلاً بين المدينتين، بدأ الخوف يدب في نفس الصبي، وأخذ يبكي، فقال له الوالد:

بكاؤك هذا سوف يجلب لنا الذئاب، فاصمت نسلم، فصمت الصبي على مضض، ولكن لا يعلم

إلا الله مدى الخوف الذي في قلبه من هذا الموقف، ثم لما وصلا إلى مكان مناسب، منخفض بين دعسين «طعسين» ناما نوماً عميقاً بعد التعب.

عندما افتقد والد الصبي ابنه، بعد أن خيّم الظلام، أخذ يسأل عنه أقرانه، فقالوا إنهم رأوه في آخر الوقت مع عبدالله العلي الخويطر، جاء الرجل لجدي يسأل عنه، فقال له جدي:

إن كان ابنك مع ابني عبدالله فلابد أنه ذهب معه كالمعتاد لبريدة، «لتطيير» الحمام من هناك، وباتا في الطريق عائدين، ولما أبدى الرجل ملاحظة عن الأخطار التي ربما يتعرضان لها، ومنها الذئاب، ضحك جدي ـ رحمه الله ـ وقال له:

يا فلان، الخوف على الذئاب من عبدالله وليس على عبدالله من الذئاب، فاطمئن على ابنك، واذهب ونم بسلام، وسترى ابنك غداً، إن شاء الله.

وفي اليوم التالي عاد الصبيّان سالمين، وأظن أن الأب لم يسمح لابنه بعد ذلك بالاقتراب من الوالد وأن الإبن لم يفكر في الذهاب إلى بريدة مرة أخرى، رحمهم الله جميعاً، فكلهم الآن تحت الثرى، هم وحمامهم، وذئابهم!!.

طَقّة باب الزّبدي:

الشباب لا شيء «يعوقهم» أو يؤخرهم عن تصرفات يرى الكبار أنها خرقاء، وأنها منافية للعقل، ولكن روح التحدي عند الشباب تغلب أي معوق لها عن اتباع ما تقتنع به، والتحدي

وقود لا يغلبه وقود، فهو طاقة الشباب، مع غياب العقل، واستصغار الجهد، والعمى عن الأخطار، ومثلما فعل الوالد بذهابه لبريدة «لتطيير» الحمام ذهب آخرون ليتأكدوا من أمر غريب ذكر لهم، وتضاربت الأخبار حوله، فأرادوا أن يتأكدوا بأنفسهم من حقيقة الأمر، وأن يقطعوا الشك باليقين، ويضعوا حدّاً للتخرصات.

المِطَقَّـة: هي حلقة، بشكل معين، توضع على الباب من الخارج، يطرق بها القادم إلى البيت الباب، لينبه من بالداخل إلى قدومه، ليفتح له الباب، في أسفلها مثل رأس المطرقة، لكي تعطي الصوت المطلوب إيصاله إلى من بالداخل، قرب أو بعُد، وقوة الطرق تكون

حسب الحال، وتُضرب هذه الحلقة على قطعة حديد مثبّتة على الباب حتى لا تحفر الخشب مع مداومة الطرق.

راجت حكاية في عنيزة تقول إن مطقّة باب بيت الربدي من ذهب، وكان هناك فتية جلوس، في إحدى «القبب» في عنيزة، وأجالوا الفكر فيما سمعوه عن هذه الشائعة التي انتشرت، وصارت حديث الناس، وتجادل الفتية في الأمر ما بين مصدّق ومكذّب، المصدق يقول إن الربدي موسر وقادر على أن يجعل مطقّة بابه من ذهب، ومكذب يقول إنه ليس من رداءة العقل أن يفعل ذلك، فإن فعل فعليه أن يحرسها ليل نهار.

كان لهؤلاء الفتية من النشاط والعزم ما لا يمنعهم عن أن يقوموا برحلة على الأقدام حالاً إلى بريدة على الرغم من بُعد المسافة والجهد والتعب لكي يقطعوا الشك باليقين بأنفسهم، ويروا هذه المطقّة، فيلمسوها بأيديهم، ولو كانت آلات التصوير متوافرة حينذاك لصوروها.

ذهب هؤلاء الشباب إلى بريدة، وقطعوا المسافة الطويلة، آملين أن يروا هذه المطقّة التي شغلت الناس، وقد أنساهم هذا الأمل المسافة والتعب، وبعد أن وصلوا إلى بريدة ذهبوا إلى بيت الربدي ورأوا المطقّة وفحصوها وتأكدوا أنها ليست من ذهب، وإنما من صفر لامع، وهذا هو الذي دعا الناس أن يقولوا إنها من ذهب، وبهذه الزيارة

انقطعت الشائعة، واستراحت الألسن، وبارك الله في نشاط الشباب وهمتهم.

عجل برأس إنسان:

حب الاستطلاع عند الشباب، ورغبتهم في معرفة كنه الشيء المُختَلَفْ عليه، مما فيه روايات متضاربة، وآراء متعددة يجعلهم دائماً يحبون قطع الشك باليقين، وتجمعاتهم في القيلولة هي النوادي التي تتبلور فيها أفكارهم، وينطلق منها عزمهم على القيام بعمل ما مجتمعين، لقد سمعوا في ضحى يوم من الأيام أن بقرة في بستان فلان ولدت عجلاً له رأس إنسان، وكنت حاضراً عندما جاء الخبر في معشش في «الصفا» في حي «الضبط»، وكان من جملة

الشباب ابن خالتي محمد العبدالله القاضي، وأخي من الرضاع، وكان ومن معه يكبروننا كثيراً، فتداولوا الرأي فيما سمعوا، وقرروا أن يذهبوا إلى هناك، وذهب الكبار منهم ورأوه ولا أدري ماذا كانت النتيجة، ولكن قياساً على إشاعات مماثلة مرت بي بعد ذلك، تبين أن هناك تشوهاً في الخِلقَة أحياناً يجعل الناس يلحقونه بالإنسان مثلما حدث قبل سنوات في حديقة الحيوانات في الرياض.

الورل في الحقل:

وحادثة أخرى، مثل هذه التي تدور في المعشش، مع الأشخاص أنفسهم، وهم يجلسون للراحة وقت القيلولة، كان الحديث هذه المرة عن «ورل» رؤي

في مزرعة من المزارع البعيدة نوعاً ما من الضبط، ولعلها على أطراف الصحراء، وهي المكان الذي يستطيع هذا الحيوان البري الوصول إليه.

ذهب الشباب ركضاً إلى المكان الذي وصف لهم أنه يوجد فيه، ولا أدري هل وجدوه، أو أنه اتخذ طريقه إلى بيئته الأصلية، وهو حيوان يشبه الضب إلا أنه أرق عضلات من الضب، ولعله يُعد من فصيلته.

والناس يخافون منه، بخلاف الضب، ويقولون إن عضته مؤلمة، وأنه إذا عض أحداً، فإن فكّه يطبق إطباقة قوية، ولا يفلت العضو المعضوض إلا إذا صُبَّ على رأس الورل سمن مغلي. هذه الصورة تُبعد الناس عنه، ولهذا لم يكن ضحية

لهم مثل الضب، وهم يتصورون فداحة الأمر عندما يعض، فإلى أن يغلى السمن يمر وقت طويل، وماذا إذا لم يوجد نار ولا سمن؟!.

جدّي علي:

كان جدّي مهيباً، فهو كبير الأسرة، والكل يحترمه، ويراعي راحته عن طريق الحرص على عدم الضجة وعدم الصراخ في القيلولة عندما ينام، وعندما أتذكر تصرفه معنا أدرك الآن أنه لم يكن قاسياً كما كنا نتصوره نتيجة الهيبة التي سيطرت علينا من معاملة الآخرين له باحترام، ولم يكن يداعبنا ونداعبه مثل جدي، والد والدتي، ولعل السبب تعدد أحفاد جدي «عليّ» وأسباطه، مما يجعل من الصعب إعطاء كل واحد منهم من

الوقت والحنان مثل ما يعطيه للبقية، وقد عرفت ذلك عندما كبرت، وأصبح بالإمكان أن يخصني بعطفه لسني، ولأني أكبر أحفاده، وأكبر أكبر أولاده، وكنت حينئذ في العاشرة تقريباً، كانت الظروف في تلك السنة تقتضي أن أكون قريباً منه، فجلوسه الدائم في القهوة يقتضي قضاء والدتي وقتاً غير قصير في البقاء في خدمته، وهذا أتاح لي المجيء عنده، والبقاء معه، والاقتراب منه، وفيما بعد قمت بمهمة إيصاله إلى المسجد بعد أن كفّ بصره، ليؤدي صلاة المغرب، ويبقى هناك حتى يُصلي العشاء فيصحبه عمي إلى البيت، أسكنهما الله فسيح جناته.

وما اكتشفت من حبه لي كان أمراً طبعياً،

فبجانب ما ذكرته في الميزة التي ميزتني عن غيري من أحفاده، وكلهم صغار، أن الأرواح جنود مجنّدة ما تقارب منها ائتلف، وما تباعد منها اختلف، وهناك صلة روحية تقوم بين المتحابين تزيد من حيز كل منهما في قلب الآخر، فهذا ما كان بين جدّي ووالدتي وشخصي، والقصة الآتية تظهر مدى ارتباطي به وعدم رضاي عن أي شيء يزعجه.

جدي وابن قريبي:

كان ابن قريبي لا يصغرني إلا بسنة أو اثنتين، وكان صبياً فكهاً، خفيف ظل، يحب الضحك، ويأتي بما يبهج، حتى لو كان في هذا غضاضة عليه، المهم أن يشيع الفرح والبهجة والضحك

فيمن حوله، فانتهز صمم جدي، ووجد في هذا مجالاً للإضحاك، فصار يقف في طريقه، ويقول له، متظاهراً بالسلام عليه:

صبّخك الله بالخيش.
فيرد عليه جدّي، ظاناً أنه يقول:
صبّحك الله بالخير.

ولحبي لجدي واحترامي له وتقديري و«لحميتي»، أزعجني هذا كثيراً، فحذرت قريبي هذا من أنه إذا لم يقلع عن هذه الحركة فسوف أخبر جدي بحقيقة ما يتلفظ به، وبسبب البهجة التي كان يثيرها فعله هذا استصغر معها تحذيري، واعتقد أنني غير جاد فيما قلته، فأبعد عن ذهنه مكمن الخطر، وقد أمن بعد أن قالها مرة أو مرتين بعد

التحذير، ولم أنفذ وعدي، ولعله بعد هذا نسي التحذير، فتمكنت منه روح المزاح، واطربته موسيقى ضحك الصبيان حوله، فاضطررت أن أخبر جدي وقلت له:

إن فلاناً يوهمك أنه يقول: صبّحك الله بالخير، وهو في الحقيقة يقول: صبّخك الله بالخيش.

وعندما وقف قريبي في طريقه أصغى - رحمه الله - جيداً للفظة، وكان يحاول أن لا يركز بقوة على «الخاء» في «صبخك» فتبدو لغير المتنبّه أنها «حاء».

فلما تأكد جدي من اللفظة ناداه، وقال له: يا فلان، اقترب مني، فلما دنا منه، وضع - رحمه الله - يده على كتفه بحنان، وقال له:

يا فلان، بعد اليوم لا تصبخنا بالخيش مادام ليس عندك إلا هو، نحن لسنا في حاجة إليه، خل تصبيخك لك.

فقلت لقريبي إذا عُدت لهذا مرة أخرى فسوف أخبر والدك، وهو يعرف أن والده سيجلده ولن يرحمه، فأقلع عن هذه العادة السيئة، وفرح أن الأمر وقف عند هذا الحد، وقنع من الغنيمة بالإياب، وبقي يدعو الله ألا يخبر جدي أباه بما حدث.

وهنا ملاحظة يحسن إبداؤها هنا، وهي أن أبناء «الحمائل» (الأسر) لا يشيرون إلى جدهم بكلمة «جدي» ولا إلى جدتهم بكلمة «جدتي»، وإنما يقولون: والدي فلان، ووالدتي فلانه؛ فإذا قال الطفل أو الإبن والدي بدون ذكر اسمه انصرف

الذهن إلى والده، وإذا ذكر مع «والدي» الاسم انصرف الذهن إلى الجد، ولهذا لم نكن نلفظ كلمة «جدي» وإنما نقول أبي علي، وأمي نورة.

وعندما أفكر في معاملة جدي لنا عندما أقارنها بمعاملته لأبنائه، أرى الفرق، ولكن يبدو أن للسن دخلاً أولاً، وثانياً أن تربية الأحفاد هي مسؤولية الآباء، وليس الأجداد، ولهذا لا نذكر أن جدنا أنّبنا على الضوضاء التي نحدثها أحياناً في القيلولة، ويأتي تأنيبنا من آبائنا أو أمهاتنا، عندما نرى جدنا بعد ذلك لا نرى أن خطأنا أثّر عليه، مع ملاحظة أدبنا المتناهي مع جدّنا، منّا ومن زملائنا الصغار في حيّنا، حتى كنا إذا مر من جانبنا هو أو أي رجل كبير في السن نوقف اللعب، ونلتصق بالجدران.

وقد نال قريبي هذا عقاباً على تصرف منه كان مخيفاً، فقد كنا نلعب في القيلولة، وكان والده ووالدته نيام، ووكل إليه أمر أخته والعناية بها، وكانت صغيرة، لا يزيد عمرها حينئذ عن سنتين، وكنا نلعب مع أبناء حيّنا، ولسبب لا أذكره الآن أخذت أخته تبكي بكاءً متواصلاً، فنهرها أخوها هذا، فلم يفد ذلك شيئاً، وضربها فلم يوقف صياحها بل زاده، فأخذها من كتفيها، ودلاها في البئر، وهددها بأنها إذا لم تصمت فإنه سوف يسقطها في البئر، فذعرت البُنيّة، وسكتت، وهي تشهق، مدافعة البكاء، فاضطررت أن أخبر والده، وكان عقابه شديداً، وكادت أن تقع كارثة، لو قاومت الصغيرة، وسقطت بدون إرادته[1].

(١) يصر قريبي هذا على أني اخترعت القصة وصدقني والده وأنها في الحقيقة لم تقع، فمن الحكم؟!.

جدي عليّ وأبناؤه :

كان جدي يحب أبناءه، ومن مظاهر حبه لهم أن بيتنا الذي نسكنه ـ حسبما فهمت، كان لعمة والدي ـ رحمهما الله ـ وكان زوجها من آل عامر، وأحفاد ابنها يسكنون الآن الكويت، ونحن معهم على اتصال، وقالت في وصيتها: إذا لم يحتج أولادي للسكنى في البيت فَلِعَليّ وأبنائه أن يتخذوه سكناً لهم، ولهذا كنا نسكن هذا البيت، وفيما بعد اشترى والدي بيتاً وأرضاً مجاورة لهذا البيت لضمها إليه.

وكان والدي في يوم من الأيام، في شدة الصيف، يقف في الشمس مع العمال، يشرف عليهم، فلفت جدي نظره للضرر الذي قد يأتي من ذلك،

وناداه ليقف في الظل، فوعده بأن يفعل، ولكنه استمر يقف في الشمس، وتكرر الأمر، وتكرر الوعد بالاستجابة، إلا أن والدي بقي واقفاً في الشمس، فأخذني جدي، ووضعني في الشمس، ولفت نظر والدي لذلك، وكأنه يقول له، اعرف شعوري نحوك بما تشعر به نحو ابنك، فسارع والدي وعاد إلى الظل، استجابة لأمر والده!.

البناؤون:

هذه فرصة لأتحدث عن البنائين بما لعله يرفّه قليلاً عن القارئ تتالي المعلومات الجافة عن حياتي!.

البناؤون، مثل كل الحرفيين، يستعينون بالغناء في التغلب على التعب، وأذكر هنا أن من أغانيهم الأبيات الآتية، وكانوا «يشيلونها» بنغمة تساعدهم

على العمل، وقد روتها الوالدة ـ رحمها الله ـ وسمعتها منهم، وهم يبنون بيت فهد الهذيل:

الأوارم نفـــاد العيـــش
عـــزّي لمـن هـن تقفـنّه
الأوارم ســـــراج البيـــت
عـــزّي لبيت خلـــن منّـــه

والأوارم هي الظباء، من ريم، كنّي بها عن النساء، فهن يفرطن في القمح «سقمة» طعام ويتأوه قائل البيت على من كنّ خلفه يصرفن فيفقرنه.

أما البيت الثاني فينحو نحواً مغايراً، فإنه يمتدحهنّ، ويقول: إنهنّ السراج الذي يشعّ نوره في البيت، ويقضي على ديجور الظلمة فيه،

ويتأوه لمن ليس في بيته واحدة منهن.

ويبدو أن هؤلاء البنائين كانوا فريقين مختلفين، كل فريق في جهة من البناية، كان فريق يقابل الآخر، فإذا ما قال فريق بيتاً مادحاً رد عليه الفريق الآخر ذاماً بالبيت المعضد لرأيه، ويستمر الأمر بين الفريقين إلى أن تضع حرب البناء أوزارها.

وهذا يؤكد أن الاختلاف في أمر النساء وموقعهن من المجتمع أمر أبدي، كل جيل له فيه رأي، يعضده أناس، ويعارضه آخرون، وليس هناك حَكَم بين الفريقين، والفريق السعيد معهن يمدح، والفريق الشقي يذم، ولا يمدح السوق إلا من ربح فيه!! اللهم اجعلنا من الرابحين في هذه السوق!!.

جدّي وطريقته في التربية :

كان لجدي أسلوب حكيم في التربية، فهو حازم وقت الحزم، وليّن إذا اقتضى الظرف ذلك.

كان والدي صغير السن، وكان المتبع في نجد ألا يشرب أحد الماء بعد الطعام، وكان الوالد قد تعشى قُرب المغرب، كما هو المعتاد، وطلب من والدته، جدتي، أن تسقيه ماءً، فأبت، وبَصَّرته بالضرر من الشرب بعد الأكل، فأخذ يلح ويبكي، ولكنها لم تستجب لطلبه، وصادف أن جدّي كان عائداً من السوق إلى البيت ليتعشى، فسألها عن سبب بكائه، فأخبرته، فما كان منه ـ رحمه الله ـ إلا أن عمد إلى «طاسة الخراف» وهي وعاء طاقته أربع كيلات أو خمس، يجنى فيها عادة التمر،

و«يُخرف» من النخلة. أخذ ـ رحمه الله ـ القربة، وصب منها ما ملأ الطاسة، ثم التفت إلى ابنه، وقال له:

اشرب، فقد مررت قبل قليل بحفّار القبور، وهو في المقبرة، رافعاً يديه إلى ربه يدعو ويقول: «يا رزّاق يا كريم» فقد يكون الله قد قسمك له.

قال والدي: فنظرت في الطاسة والماء يصطفق، فرأيت صورتي المضطربة وكأنها صورة ملك الموت، فجفلت، وأصابني ذعر شديد، وتراجعت سريعاً، وكأن الصورة سوف تلاحقني، ولم أعد أطلب الماء بعد الأكل، ولو عرض عليّ لهربت. رحم الله جدي، لقد عرف كيف يتصرف مع الطفل الملحاح، على نيل ما فيه ضرر بالغ له دون

أن يدرك هذا الضرر.

لعل من المناسب أن أزيد هنا بعض ما أعرفه عن جدي، رؤية ومعاشرة أو سماعاً.

جدّي اسمه أبو عبدالله علي بن عثمان بن حماد الخويطر، ومن أراد أن يعرف أكثر من هذا عن الأجداد فعليه الرجوع إلى شجرة أسرة آل خويطر، التي أعدها الابن الموفق زياد بن محمد ابن عبدالله الخويطر، ففيها تفصيل واف شاف عن هؤلاء الأجداد، وما تفرع منهم.

كانت ولادة جدي حسب إفادة العم سليمان العبدالله البسام ـ رحمه الله ـ في عام ١٢٦١هـ في عهد الإمام فيصل بن تركي ـ رحمه الله ـ وقبل إمارة جلوي بن تركي عام ١٢٦٥هـ بثلاث

سنوات تقريباً، وأظن أن إمارة عنيزة حينئذ كانت بيد إبراهيم السليم، أو في عهد ناصر بن عبدالرحمن السحيمي، الذي ولاه الإمام فيصل بعد عزل إبراهيم السليم، وتوفي جدي «علي» عام ١٣٥٨هـ، وعلى هذا يكون عمره عند وفاته سبعة وتسعين عاماً تقريباً.

وكان ـ رحمه الله ـ قويّ البنية، ويقال إذا كانت عطسة المرء قوية فهذا دليل على قوة بدنه، وقد كانت عطسته، حتى بعد أن كبر، تزلزل المسجد، على أي حال قد لا تكون هذه القاعدة ثابتة.

وأول ما أذكر عن جدي مشيته، وقد «كبع» مشلحه على رأسه عن الشمس، في ذهابه إلى المسجد الجامع لصلاة الجمعة، وكما سبق أن ذكرت

كان سمعه ثقيلاً، ونظره قوياً، وفي عينيه شيء من الإحمرار، ثم كف بصره، وعاد إليه سمعه، وكان بعد أن كف بصره، وضعف جسمه، يجلس عصراً عند دكان إبراهيم القطن، ودكانه يأتي أمام شارعنا مباشرة، فإذا قرب وقت وجبة العَشَاء، قبل غروب الشمس، وأوشك أصحاب الدكاكين أن يغلقوها، ذهبت إليه، وصحبته للبيت، وأحياناً آتي مبكراً، فأجلس بجانبه، وأسمع ما يدور من أحاديث بينه وبين من يعرفهم، وكثيراً ما يأتي أُناس يطلبون إفادته عما يعرفه عن بعض بيوت من مات من أقاربهم، فكان يفيدهم ـ رحمه الله ـ لأنه يعرف هؤلاء المتوفين معرفة جيدة، ويعرف أمورهم، وكانت ذاكرته قوية، وكان يأتي إليه بعض المتنازعين

ليصلح بينهم، وكانت كلمته مقدّرة، لمقامه ولسنّه، وعدم تحيّزه، وتوخيه أن يكون الصلح منهياً لما في النفوس من أثر النزاع، ويذهب المتخاصمان ونفساهما راضيتان.

وأذكر أنه عندما كفّ بصره ـ رحمه الله ـ بقيت عيناه مفتوحتين كما لو كان مبصراً، وهذه الحالة تسمى «السويرق»، أي أن النظر سُرق من العين، واستُلَّ منها وهي غافلة، دون مرض أو حادث، وأذكر أن أعرابياً مد يده ليسلم عليه، واستغرب الرجل، وظن أنه تجاهلٌ من جدّي، فقال الأعرابي بصوت أجش: «خمسك» وهي كناية عن اليد، وفيها خمسة الأصابع، وقد تألمت من هذا الموقف كثيراً.

جدي وموقعة المليداء:

اشترك جدي - رحمه الله - في حرب «المليدا»، وكانت ضد ابن رشيد، وقد خرج من كل بلدة من القصيم محاربوها، وتجمعوا، وتلاقوا مع ابن رشيد في «المليدا» في «المنتصف» بين عنيزة وبريده، وفيها المطار الآن.

ودارت هناك معركة عنيفة، وكانت الهزيمة على أهل القصيم، وقد أصيب جدي فيها ثلاث إصابات، إحداها في كفه، والأخرى في وجهه، والثالثة في ظهره من الكتف إلى الإلية، وفي ذلك قصة تستحق أن تفصّل:

عندما أصيب جدي هذه الإصابات البالغة، ونزف منه الدم، وقع على الأرض، وزحف إلى

تحت شجرة هناك، ورصده أحد فرسان العدو، ولابد أنه كان مراقباً له، إن لم يكن هو الذي سدد له هذه الضربات قبل أن يصل إلى الشجرة ليحتمي بها.

قرر الفارس أن يقضي عليه، وقطع جدي غصناً طويلاً من الشجرة، فكان كلما هجم الفارس مقبلاً عليه تلقى وجه فرسه بهذا الغصن، ملوحاً به أمامه، فيجفل الفرس، ويتراجع أو يحيد، وأنجى الله جدي بهذا الغصن، وكان الفارس في كل هجمة «ينتخي» ويقول: «يا ثارات عقاب»، ولا أعرف إن كان «عقاب» رجلاً مات في حرب دارت رحاها مع أهل القصيم، أو أنها معركة خيضت بين أهل حائل وأهل القصيم.

نزف جدي حتى لم يعد يستطيع تحريك الغصن، فرفع يده يتشهد، لأنه أيقن بالموت، فلما رآه الفارس يتشهد كفّ عنه، وقال: «نجوت نجوت».

هنا يقف المرء معجباً بروح الفروسية التي تحكم فرسان الجزيرة، فالفارس لم ير أنه من الرجولة أن يجهز على من لم يكن بمقدوره أن يحمي نفسه، وأسلم أمره إلى الله.

بعد أن انتهت المعركة، وآب الجيش المهاجم بالغنائم، وانسحب من أرض المعركة بدأ أهل القصيم الذين بقوا أحياءً يتفقدون رجالهم المقتولين والجرحى؛ فجاء رجل من إحدى قرى القصيم، ورأى ما بجدّي من الجراح، وسألهُ من أي غزو هو؟

فقال له جدّي: من غزو عنيزة.

وسأله عن الدابة التي حملته إلى أرض المعركة؟

فقال له: إنها بعير «أملح» أي أسود، عليه الوسم الفلاني.

بحث الرجل عن البعير ووجده، فأحضره.

قال له جدّي: شُدّ وثَاقي عليه، ووجّهه إلى طريق عنيزة، وهو يعرف الطريق بعد ذلك.

ففعل الرجل ما طلب منه.

ثم بدأ عناء شديد جديد، تحمل جدي فيه آلاماً مزعجة، فقد كان البعير متأنياً في سيره، يتمتع بأكل العشب، ويمشي حرّاً كما يحلو له، ويبرك متى شاء، وكان جدّي يتألم كلما برك البعير أو نهض، فكانت هذه الحركة تفتق ما بدأ يلتحم من جروحه، وأخذت الرحلة ثلاثة أيام بلياليها، وقد يئس أهله منه، لأن النشيط

من رجال الغزو، والسالم وصل إلى عنيزة، في حالة مزرية، ولا يعلم أحد عن أحد شيئاً، لقد كانت المعركة شرسة، ونتائجها دامية، ومات فيها أبطال معروفون مشهورون، وكان من بين القتلى أمير عنيزة زامل السليم، رجل شجاع عاقل، معروف بمواقفه المشرّفة.

ويقول جدّي: إن البعير عندما دخل عنيزة كان يقف عند كل «عائر» (منحنى بارز في الجدار) يتحكك ما وسعه التحكك، وكان يغمى على جدّي من الآلام التي لم يمر عليه مثلها، والبعير لا يُلام فالشداد الذي فوق ظهره كان له ثلاثة أيام مشدوداً، ولابد أن هذا يضايقه، فيحاول أن يخفف من ذلك بالتحكك.

وصل البعير أخيراً إلى البيت، وبرك أمامه، يجتر بهدوء العُشب الذي رعاه، ولم يعلم به أحد، وعند أذان الفجر نهضت والدة جدّي وزوجته لصلاة الفجر، وأطلت والدته فرأت البعير، وأيقنت أنه وحده، وأن عليّاً قد قُتل، فالتفتت إلى زوج جدي (جدتي)، وقالت لها:

يا نوره، الله يخلف علينا عليّا، هذا البعير بارك أمام الباب، إنزلي «إجْعَفِي» عن هذا المسكين شداده (رحله)، فلابد أنه عانى ما يكفي.

وكانت المفاجأة عندما وجدتا جدّي حيّاً، موثقاً على ظهر البعير، فأنزلتاه، وأدخلتاه البيت، وأوقدتا ناراً، ووضعتا عليها قدراً مليئاً بالماء، ثم احضرتا «بشاكير» (فوطاً كبيرة)، وأخذتا

تغسلان الجروح بالماء والملح، وقد روت عمتي عن والدتها أنهما كانتا تبعدان جوانب الجرح الطويل في الظهر، وكأنه أخدود، فتملآنه بالمُر والحلتيت والصبر، «تدحوانه» دحياً.

وبقي ـ رحمه الله ـ مُلقى على ظهره ما يقرب من ثلاثة أشهر، وكنت أرى أثر هذا الجرح بعد سنوات من التئامه كأنه خط بيد رسام، وكذلك الأثر الذي في وجهه كأنه خط بقلم أبيض على بشرة سمراء، وكان يمضي وقتاً قبل أن يقفل قبضة يده.

وأقف قليلاً عند مظهر قوة الإيمان، وعمق الرحمة للحيوان في قلب والدة جدّي، فقد بدأت بدعاء ربها، وثنت بالإلتفات إلى البهيمة المسكينة،

وما عانته خلال الأيام الثلاثة التي قطعتها من المليدا إلى عنيزة، من إزعاج الرحل لها طوال هذه المسافة والمدة، والرحل إذا طال مكثه على ظهر البعير يحدث له مرض «الدبر»، وهي جروح تظهر على الجلد تؤلم، وتحرم صاحب البعير من الاستفادة ببعيره، حتى إذا شفي لا يعود الظهر طبعياً كما كان في السابق، ولهذا عندما ينزل الراكب من ظهر البعير، يتركه قليلاً حتى يبرد الظهر، ثم ينزل عنه الرحل.

هذه السيدة لم تذهل عن واجبها الديني حيال هذا الحيوان الأعجم، ولهذا أفرحها الله سريعاً برؤية ابنها، واسم والدة جدّي عليّ: تركية الحمد المطرودي.

ومظهر الرحمة، وخوف الله، وسلامة القلوب، عند ذلك الجيل متمكنه من نفوسهم، وسمعتُ سيدة تذكر بإعجاب متناه ما تناقلته الألسن من أن قائد إحدى السرايا، وهو يمر بسريته ليلاً، خارجين لمعركة خارج عنيزة، يقول لأتباعه، وأحدهم في المقدمة:

طرِّق، يا فلان، حتى لا نطأ أحداً.

هؤلاء الذين ذهبوا لحماية بلدتهم، وهم مقبلون على قطع رؤوس، لم يذهلوا عن واجبهم تجاه الأبرياء، وهذه صفة الفروسية حقاً.

إن بعض المعلومات التي أنقلها عن جدّي مأخوذة من بعض الوثائق الخاصة ببيوتنا، أو بالنخيل التي ورثها جدي أو ابتاعها، وهذا يبين

عصاميته ـ رحمه الله ـ وكيف سار في الحياة يكدح، ويكوِّن نفسه، وهذه الوثائق وأمثالها، بلاشك، أصدق مصدر يمكن أن يعتمد عليه، لأنها كتبت في وقتها عن أمور قائمة، أو نقلت، بيد ثقاة من وثائق سابقة، وهؤلاء الناقلون في الغالب رجال دين مسؤولون، إما قاض، أو إمام مسجد.

وعلى الرغم من أنني لم أعرف جدّي إلا بعد أن كبر، إلا إنه يبدو من بناء جسمه أنه كان قوياً وافياً في بنيته، «فجريدة» ساعده، أي عظمه، كان عريضاً، وعظامه تدل على أنه كان عضلاً، ولا أظنه كان قصيراً، وحين عرفته كان قد بدأ يضمر جسمه، فقد كان منحنياً عندما اقترب من التسعين، وقد زاد ضعفه مع مرور الأيام،

واستمر هذا الضعف تدريجاً، وزاد انحناء ظهره ـ رحمه الله ـ وقد أصبح نهوضه من الأرض صعباً، وأصبح قعوده من قيامه بطيئاً ومتدرجاً بأناة وجهد، وصار يعتمد على العصا في مشيه.

ثم بعد ذلك، وقبل سنتين من وفاته، انقطع عن الذهاب للصلاة في المسجد، ثم صار ذهابه من القهوة إلى حوشها للوضوء صعباً، ويجهده كثيراً، وكان من حوله يتألم له، وتأتي إلى ذهني صورته عندما كان فتيّاً، وهذا أمر يتكرر مع من يعمر ويهرم. وفي آخر الأمر كان يحبو ويزحف، إذ لم يكن هناك وسائل تساعد على المشي والتنقل مثل الوسائل الحديثة، التي تخفف من عناء كبار السن في تلك الحركات، حتى الكراسي، وهي

أكثر راحة للكبير من الجلوس على الأرض، لم تكن معروفة، وليس في بيتنا كرسي واحد، بل لم نر كرسياً واحداً في عنيزة، ولم يكن هناك للجلوس أعلى من الأرض إلا مقاعد مبنيّة من الطين بجوار المساجد، يجلس فيها من أدى فرضاً وينتظر آخر، أو القاضي أو الأمير لتصريف أمور الناس.

كان جدّي ـ رحمه الله ـ حريصاً على الصلاة في المسجد في جميع الأوقات، إلى أن أقعده الكبر، وكانت أوقاته منتظمة انتظاماً دقيقاً: وقت نومه، ووقت يقظته، ووقت أكله، ونوع أكله، ولا أذكر أن عشاءه اختلف عن «القرصان»، وعليه بعض القرع أو الكوسة، أما غداؤه فتمر وزبدة ولبن، وهو في دقته في مراعاة أوقاته خير ساعة لأهل بيته.

ومن دلائل قوة جسمه ـ رحمه الله ـ أني كنت أمشي معه في أحد أيام رمضان، بعد أن كفّ بصره عائدين من المسجد بعد صلاة العصر، وهو الوقت الذي يكثر فيه الشحاذون، وبعضهم من خارج البلدة، إما من القرى القريبة أو من البادية، وكان جدّي يفرق الزكوات والصدقات، التي يرسلها له والدي، أو يعطيه إياها بعض الموسرين، وقد اعترض طريقنا أعرابي، طارئ على عنيزة، وطلب من جدّي صدقة، ويبدو أنه ـ رحمه الله ـ استدل من صوته على أنه شاب فتيّ، ولكنه أحب أن يتأكد من ذلك، وأن ليس به إعاقة، فسألني عن مظهره، فأخبرته أنه شاب مفتول العضلات، فقال له جدّي:

ادن مني.

فدنا منه، فأمسكه من عضديه، وهزّه هزّاً عنيفاً، وقال له:

ألا تستحي من ربك، وقد أعطاك هذه العافية، وهذه «الزنود» (العضود)؟! أنت لا تستحق الزكاة ولا الصدقة، هذه للضعفاء والعجزة، والأرامل، وذوي العاهات، وكبار السن المحتاجين، وأنت عافيتك تكاد تخترق ثيابك، أنت عليك أن تحمد الله على ما وهبك من صحة وعافية، أنت الذي عليك أن تزكي عن هذه العافية التي أنعم الله بها عليك.

كل هذا وهو يهزّه، حتى تمنى الأعرابي أنه لم يدخل البلدة، ثم تركه، فذهب مسرعاً لا يلوي على شيء.

ومما يتصل بجدّي من القصص، قصة رجل لا أريد أن أذكر اسمه فهو عَلَم، ولا اسم أسرته حتى لا يكون فيما أذكر إحراجاً لهم، والرجل لا يكاد يُعرف إلا «بمعايرته»، وهو رجل يبدو أنه في يوم من الأيام كان طالب علم، ولكنه غير طبعي، لأن به وسواساً فيما يتصل بالوضوء، فهو لا يطمئن إلى اكتماله، وحسن أدائه فيه، إلا إذا نزل في بركة يغمر ماؤها كل جسمه، أو نزل في بئر أحد المساجد، ويفعل ذلك خاصة لصلاة الفجر، وينتظر أول متوضئ يأتي حول المسجد، فيناديه، وهو في البئر:

«يا عبدالله، احتسب الأجر، واخرج أخاك من البئر»، ومن لا يعرف عن هذه العادة عنده،

يجفل منه، ويظن أن في البئر جنيّاً.

وهذا الرجل من المناظر المميزة في عنيزة، لتناقض أعماله، فهو بالصفة التي ذكرناها، ولكنه منظم في بعض أموره، فهو مثلاً قد رتّب أن يأخذ عشاءه من البيت الفلاني، ولا يعود إليه إلا بعد عام، أو ما إليه، وهكذا يدور على البيوت كل بيت عليه عشاء يوم، وكان الناس يرحبون بذلك، ولا يتضايقون منه البتة، ولكنهم حذرون تجاه الوعاء الذي يضعون له فيه الأكل، ويحرصون ألا يكون من نوع ينكسر، أو ينقشع طلاؤه الصيني، وإنما يعطى وعاءً غير ذي أهمية من المعدن، بحيث لا يتأثر عندما يأتي في اليوم التالي، مُعيداً الإناء، فيرميه من كوّة الباب، أو من أعلاه، لأن هذه

عادته، وهي معروفة عنه.

ومما يأخذه من البيوت أيضاً الجمر في أيام الشتاء، ويذهب به إلى خلوة المسجد، يتدفأ به، وكان يُخشى أن يحرقه، وهو رجل كفيف لا يتنبه لاشتعال النار في ثوبه حتى يدخل مرحلة الخطر، ويرى الناظر إليه أحياناً علامات لسع النار لثوبه.

ولأنه كفيف البصر يقف في مخرج سوق البيع، ممر الفلاحين الذين يجلبون العلف، فإذا مر به فلاح على ظهر حماره أمسك بذيل الحمار وركض معه في الطريق حتى يوازي بركة الدغيثرية، فيترك ذيل الحمار، ويذهب إلى البركة ليتوضأ بالنزول فيها بكل جسمه.

وهو رجل محبوب من الناس، وكان في أكثر الأحيان وهو يسير يقول: يا عباد الله جِدّوا، رب داعٍ لا يرد، وأحياناً يقول: رب ساعٍ لا يرد، والقصة التي أوجبت الحديث عنه هي كما يلي:

كنت خارجاً مع جدّي - رحمه الله - في عصر أحد الأيام، لأوصله إلى المسجد ليصلي المغرب فيه، فرأيت هذا الرجل واقفاً أمام بيت «العايد» (عبيدان التميمي)، يحرك يديه في الهواء، فقلت لجدي:

هذا فلان أمامنا يحرك يديه في الهواء، ويخاطب نفسه، كما يبدو، ولم أشر إليه باسمه بل بمعيارته.

وجدّي وجيله لا ينادون الناس مثلنا بمعاييرهم، فلما دنونا منه قال له جدّي بعد أن سلّم عليه:

ما عندك يا فلان؟

قال: نهندز، سلمك الله، نهندز.

قال جدي: ماذا تهندز؟

قال: أصلب طريقاً من «الحيالة» (المبيعة) إلى «حابوط» الدغيثرية، مستقيماً، لا يميل يميناً ولا يساراً.

قال له جدي: وماذا عن البيوت القائمة في الطريق.

قال: نهدمها جميعها.

وتوقفت المحادثة عند هذا، ومرت سنون لعلها خمسون سنة، وفُعل بالبيوت ما كان صاحبنا يهندزله، هُدمت وعوّض أصحابها، وجاء شارع من أول عنيزة إلى آخرها.

ويبدو أن هذا ليس مشروع الإصلاح الوحيد الذي شغل ذهنه، فهناك فكرته عن مد مياه بئر «القُسَيم» إلى «المجلس» في وسط البلدة، وغيره.

هذا يدل على أن فكر الرجل سابق لزمانه، وقد تبين أنه كان طالب علم، سافر إلى الشام، ودرس هناك، ولا أدري هل ذهب إلى هناك كفيفاً، أو كفّ هناك، أو بعد أن عاد إلى عنيزة.

ومما يدل على أنه طالب علم أنني سمعته في سنة من السنوات وأنا في العاشرة حينئذ، وقبل البدء بالتراويح يتحدث واعظاً المصلين، ولفت نظري أنه هدد من يقصّر منهم في هذا الشهر المبارك أنه سوف يبلغ عنه الإمام، وكنت أعجب كيف يبلغ الإمام، والإمام حاضر يسمع قوله، ولم أدر

حينئذ أن الإمام المقصود هو الملك عبدالعزيز إمام المسلمين.

بعد هذا الاستطراد أعود إلى شيخوخة جدّي عليّ، وضعفه بعد أن تقدم به السن، وأتذكر كلمات بعض عجائز نجد: «ياربي من حيلي لقبيري»، أي يارب أمتني وأنا صحيحة البدن، لا أحتاج إلى أحد يساعدني في أمور حياتي.

وهناك بيتان بهذا المعنى للشاعر إبراهيم العريّض، قال الدكتور غازي القصيبي أن ابن الشاعر وجدهما بين أوراقه بعد وفاته ـ رحمه الله ـ:

يا رب لا تبقني إلى زمنٍ
أكون فيه كَلاًّ على أحد

خذ بيدي، فلا أقول لمن
ألقاه عند القيام: خُذْ بيدي

وهما بيتان، كما نرى، يعبّران تعبيراً مؤثراً عن الخوف من الضعف، والحاجة إلى الناس، فيما كان لا يقوم به إلا هو، وهي صورة مرعبة.

وكلٌّ يتمنى طول العمر، وقليل من الناس ترد إلى ذهنه عند تحقق هذه الأمنية الصور التي جاءت في ذهن شاعرنا الكبير، يضاف إلى ذلك ازعاج العاجز لغيره في أوقات قد لا يكون فيها المستنجد به مستعداً للمساعدة، أو تكون المساعدة لأمر لا تقبله نفسه.

والأماني قبل الموت كثيرة، ومنها ما كانت تردده إحدى قريباتنا من كبيرات السن:

يارب أسألك عند شلعات الأبصار

ترمين بالجنة ولا كِنْ شِ صار

ومن الأماني المغرقة في الخيال أن يتمنى المرء أن يولد شيخاً كبيراً ثم يصغر مع مرور الزمن، ولكن حكمة الله غالبة، والله الخالق والناس مخلوقون.

آخر مرة رأيت جدّي:

عندما سافرنا أنا وأخي وأختي مع والدتنا من عنيزة إلى مكة في أواخر شهر ذي الحجة من عام ١٣٥٦هـ، بقينا في مكة سنة دراسية، فرأى والدي أن نذهب أنا وأخي حمد إلى عنيزة لزيارة جدي ـ رحمه الله ـ ولا أدري هل كانت الفكرة من والدي أو بطلب من جدّي.

على أي حال كانت الرحلة ممتعة لي ولأخي حمد، وجميلة من جميع الوجوه، ففيها ركوب سيارة لوري مع مجموعة من الناس، ولعدة أيام، وهذا حلم قلّ أن يتحقق إلا لطفل حظيظ، فركوب السيارة شيء لا يُشبع منه في تلك السن، ولهذا لَمْ أَلُم طفلاً سألته مرة ماذا يريد أن يكون عندما يكبر، قال أريد أن أكون سائق تاكسي حتى أشبع من السواقة وركوب السيارة!.

ومن مظاهر المتعة في هذه الرحلة أننا عدنا لعنيزة بعد أن رأينا مكة، فصرنا في عنيزة في مسقط الضوء، وملتقى العيون، وبؤرة الالتفات، ومحطّ الإعجاب، لأننا قادمون من مكة، وعندنا من الأحاديث ما يُستغرب ويُدهش، وقد كبرنا عن

العام الماضي.

عدنا لنرى جدّنا وعمّنا وعمتنا، وبقية أهلنا وصالح الإبراهيم، ابن عمنا، أخانا من الرضاع، وبقية أولاد سوقنا، ومدرستنا، وأخوالنا آل قاضي، وأخذنا نقص على من جلسنا معه ما رأيناه من الغرائب والعجائب في مكة، مما جعلنا واسطة العقد في المحافل التي يعقدها قرناؤنا، حتى ثيابنا أصبحت مختلفة «منيّلة» و «منشّاة» و «مكويّة»، كأنها جديدة، ودخلت بعض الكلمات الغريبة في أحاديثنا.

بقينا أسبوعين، واشتقنا لوالدتنا، خاصة وأن الجديد من الأخبار التي أتينا بها من مكة قد أصبح قديماً ومكرراً، ولم يعد يلقى الحماس الذي

كان يلقاه من قبل، وبدأت ثيابنا تفقد رونقها، فلا نشا ولا نيلة ولا كوي، وكانت السيارات لا تأتي إلى عنيزة إلا لماماً، وقد يمر شهر أو شهران أو أكثر دون أن تأتي سيارة، فالسيارة التي تأتي؛ تأتي لضرورة، وفيها غالباً حمل ثقيل من الرجال والأزواد، وتمكث كثيراً، فانتهزنا فرصة مجيء إحدى السيارات، فأبدينا الرغبة في العودة إلى مكة بحجة الاستعداد للدراسة، ولكن عمي لم يجد أن الوقت الذي أقمناه كافٍ، ولا رأى أن من واجب الضيافة أن يوافق بسهولة، فألح ـ رحمه الله ـ على بقائنا، ولكن جدّي ـ رحمه الله ـ أعرف بنفس الصغير، فالتفت إليه، حاسماً الأمر، وقال له كلمة حكيمة، كأني اسمعها اليوم، وطالما تمثلت بها بعد ذلك، قال:

«يا إبراهيم.. إكرام النفس هواها»..!!

فلم يسع عمي إلا أن يسلّم، ويسمح بسفرنا، فسافرنا، ولم نر جدّي، بعد هذه الرحلة، إذ لم يلبث إلا أشهراً قليلة، وتوفي ـ رحمه الله ـ فكانت هذه الزيارة بمثابة وداع له ـ رحمه الله ـ وجمعنا وإياه في جنته، وكأني به كان يود أن والدتنا جاءت معنا ليراها، ويودعها كذلك لمحبته لها، ولما رآه من خدمتها له، وحرصها على ذلك، وفقده لهذه الخدمة، بعد سفرها إلى مكة.

في هذه الرحلة أذكر حادثة طريفة، ترددت في محيط زملائنا في عنيزة، ولأنه ليس هناك ما يشغلنا أصبح أي أمر فيه طرافة يشدّنا: نرويه، ونتداوله، ونزيد فيه، وننقص منه، نقوله اليوم،

فيذهب عنا، ثم يعود إلينا وقد تغيرت ملامحه، فلا نكاد نعرفه، وهذا ملخصه دون ما علق به من بعض من سمعه ثم رواه:

كان الوقت صيفاً ـ كما قلت، وكان الناس ينامون في الأسطح طلباً لبرودة الجو، وكان هناك أخوان ينامان متجاورين، وكان أحدهم أكبر من أخيه بما يقرب من السنتين، وكان الفِراشان متماثلين، ويبدو أن الأخ الأكبر حصره البول وهو نائم، فحلم أنه ذهب إلى الحمَام، وأراق الماء فيه، وبعد قليل برد الماء المنثور فأيقظه، فواجه الحقيقة المرّة، وذعر، وتصور الابتسامات التي سوف ترتسم على الوجوه عندما يتبين الأمر عند الكبار في الصباح، فتجهم الأمر في ذهنه، وفكر في مخرج فوجده في الحركة الآتية:

انتهز فرصة نوم أخيه الصغير، وخفّة جسمه، فنقله إلى فراشه، وانتقل هو إلى فراش أخيه، مبتهجاً أنه وجد حلاًّ يبعد عنه ما خشي منه من سخرية مؤكدة لو اكتشفت الحقيقة، أما إذا اكتشف الأهل في الصباح، عند إيقاظ الصغار، أن الصغير هو الذي حدث منه ما حدث فالأمر مقبول، لأنه لا يستبعد من الصغير أن يفعل ذلك.

وقد صح ظنه، ولم يستغرب أهله ما حدث، فالصغير لم يدر بالأمر، ولم يدر أنه ضحية مؤامرة إلا بعد أن مرّ على الأمر سنتان.

لم يَخْفَ الأمر على الآخرين من الشباب الذين كانوا في سن صاحب «العَمْلَة»، لأنه ضاق بالأمر، وأحب أن يفرج عن نفسه بإظهاره الأمر لمن وثق

بأنهم يعجبون بفعله هذا، وهو يعتقد أن ما فعله يدخل في حدود العبقرية، ألم يقع في ورطة، وألم يخرج منها خروج حصان مُحمَّل بحمل ملح، فدخل النهر مثقلاً، فأذاب الماء الملح، فخرج وقد تخلص من حمله، وراح «يربع» سعيداً بأن خطته نجحت لا فرق بين الشاب والحصان، إلا أن هذا هرب من الماء، وهذا لجأ إليه، والماء عدو الأول والماء صديق الثاني.

ويخلق ما لا تعلمون:

مما أذكره عن جدي عليّ - عليه رحمة الله - ما يقال من أنه حج في إحدى السنوات، فلما عاد، وجلس للسلام عليه من أقاربه وغيرهم، استقبلهم في قهوة البيت، و «شبّ» لهم، أي

دعاهم على قهوة. والدخان في الوجار في قهاوي البيوت «يعبق» بشدة، فيعمي العيون، ويسوّد جدران المكان، إما لأن الخشب أخضر، ولم يصل إلى حدّ كاف من الجفاف، الذي عادة يقلل من الدخان، أو أن الحطب من نوع رديء، أو غفل صاحبه أن يقرّبه من اللهب.

تطرق الحديث إلى هذه المشكلة في القهاوي، فقال جدّي:

المرتاحون، حقيقة، هم أهل مكة، لا يعرفون الدخان في المساكن، عندهم شيء اسمه «السموّر»، وهو يشبه القدر، مصمت، مستطيل إلى أعلى، واقف على مراكي، وبه «بلبول» (بزبوز)، يوضع في وسط السمور الجمر والماء، ويخرج الماء يغلي من البلبول.

فاندهش السامعون، ونظر بعضهم إلى بعض، وهم بين مصدّق ومكذّب، لأن ثقتهم في جدّي فوق المعتاد، ولو قال هذا القول غير جدّي لما صدّقوه.

وأخذوا يسألون ليتأكدوا، هل الجمر والماء معاً في إناء واحد، فلما أكد لهم جدّي هذا قال أحدهم، صدق الله العظيم، «ويخلق ما لا تعلمون».

رحمهم الله جميعاً رحمة واسعة، أين هم الآن من الراديو والمسجل، والتلفاز، والتليفون، والجوال، والفاكس، والانترنت، والحاسب الآلي، والسيارات، والطيارات، وآلات التصوير، وكل هذه المظاهر المدهشة للإنجازات الحديثة، لاشك أن القفزة عالية، والزمن اختصره العلم.

القهوة.. وحفظي للقرآن:

أكملت حفظ القرآن نظراً في الكتَّاب، عند عبدالعزيز المحمد الدامغ، المشهور بضعيّف الله، فأصرّ جدّي أن يحتفل بهذه المناسبة، احتفالاً يليق بها، فهي أولاً حفظ للقرآن، وثانياً تَلْمس أكبر أحفاده وله مكانة خاصة في نفسه، فصنع غداءً حافلاً وقت الضحى، حضره «مطوّعنا» ضعيف الله، وجميع الدارسين في الكتَّاب، وهي حفلة لا تُنسى، ولايزال الأخ الدكتور عبدالعزيز العلي النعيم، عضو مجلس الشورى، يذكّرني بها، وأوجب تذكرها أنه نادراً ما يدعى في الضحى على غداء يشبه العشاء، بمناسبة ابن حفظ القرآن، ولكن محبة جدّي لي، هو وعمي، جعلت ما كان

نادراً حقيقة ماثلة، ومحبة جدي لي ولوالدي أمر طبعي، ولكن محبة عمي لي، مثل أولاده، مأتاها الصلة التي قامت بيني وبينه، وهي تماماً صلة ابن بأبيه، لكثرة غياب والدي، أما محبته لوالدي فهو شقيقه، ويشعر نحوه بنوع من الأبوّة لأنه أكبر منه، ولأنه يعطف عليه، ولأنه القائم بما يتطلبه البيت من مصاريف.

لا أنسى منظر «التِّمَّنْ» (الأرز) «مدثوثاً» (منشوراً) على واجهة الأكل، أصفر من وضع الأبازير فيه، خاصة «الكركم» (الهرد)، والأكل على نمط «المثلوثة» اليوم، في صينية «الكور»، وهي صحن كبير له شفة دائرة عليه، وملصق به قاعدة ترفعه عن الأرض ما يقارب خمسة عشر

بوصة، حتى يتسنى للضيوف أن يأكلوا منه دون انحناء، وهذه لا تستعمل إلا في المناسبات الكبرى.

عبدالرحمن العقاص:

أذكر عن حفظ القرآن، والاحتفاظ بهذه المناسبة، أن زميلاً حبيباً لنا حفظ القرآن مثلي عند ضعيف الله، وكان يقيم مع أهله في «مزرعة» (حائط الخياط)، وذهبنا إلى هذه المزرعة وقت الضحى، ووضعوا لنا قَناً من نخلة «أم الخشب»، على جدار قصير، بجانب البركة، وأم الخشب من التمر المتميز، وصرنا نأخذ البسرة أو المنصّفة، ونغسلها في الساقي الذي يمر بجانبنا ونأكلها.

ويعد هذا من الاحتفالات المرحب بها، لأن

مجرد دعوة «المطوّع» وطلابه لتكريم، حتى لو اقتصر على شاهي، يعد يوماً متميزاً يتطلع إليه، فترك المدرسة والدراسة، والذهاب إلى البيوت مبكراً، مع كسب وقت قبل صلاة الظهر، أمور لا تغيب عن ذهن التلميذ.

وهناك بعض التلاميذ، من سيّئي القصد، لا يذهب إلى البيت بعد الحفل مباشرة، وإنما يذهب يميناً وشمالاً، وحده، أو مع آخر أو آخرين، خاصة إذا كان عند أحدهم «جُريّ»، أو كلب قد رباه في إحدى الخرابات المهجورة في إحدى المزارع النائية، يضاف إلى هذا العنصر المبهج اللعب في البستان بحرية تامة، وأكل أفخر أنواع التمور، الذي قد يكون بعضنا لم يره من قبل.

ومما أذكره عن جدّي والقهوة، وهي مكان جلوسه ونومه وأكله، أنه بعد أن كف بصره، وقوي سمعه، وكانت والدتي عنده في القهوة، فسمع حركة في أحد الأركان استنكرها، فطلب من والدتي أن تستكشف الأمر، فرأت عقرباً فقتلتها، ولم ترد أن تزعجه فأخبرته أنها خنفساء، وأنها تخلصت منها، ويبدو أن هذه العقرب جاءت مع الحطب، ثم تسللت إلى القهوة، وصفة الجصة بعيدة، والقبة كذلك، وهي التي فيها عادة مفارخ للعقارب.

وتأتي بعض الروايات ببعض الحقائق التي لا يجب إهمالها وهي تكمل بعض الصور السابقة، ومن هذه الروايات رواية عن جدي وصلته بالزراعة، وتكوين رأس ماله فيها.

قيل إن درويشاً هنديّاً جاء إلى عنيزة ليبقى فيها عدداً من السنوات تتيح له القرب من مكة والحج كل عام، ووضع مالاً في بستان فيه نخيل يصرف من ريعه، وأوكل أمر رعايته إلى جدّي، مقابل شيء معلوم من المال أو الثمرة، وكان الدرويش يبقى في مكة عدداً من الأشهر، مطمئناً إلى بستانه ونخيله، لأنها في يد أمين وخبير.

ويأتي من هؤلاء الدراويش[1] أعداد في كل عام، وأغلبهم فقراء يأتون على أقدامهم يتكففون الناس، وتأخذ رحلة أحدهم من الهند إلى مكة ما يقرب من ستة أشهر، ومثلها للعودة إلى الهند، وأذكر مجيئهم إلى عنيزة ورحلتهم من عنيزة، وكانوا

(١) في «رحلة الحاج من بلد الزبير بن العوام إلى البلد الحرام» لسعد بن أحمد الربيعة، ص (٢٤) (نشر دارة الملك عبدالعزيز) تفصيل واف عن بعض الدراويش، ومسيرهم عن طريق العراق إلى مكة.

يطرقون البيوت، ويقولون «طهين طهين، دقيق دقيق»، وبعضهم أغنياء، وسيرهم على أقدامهم إنما هو لطلب زيادة الأجر والمثوبة.

بعد سنوات، قيل إنها ثمان، قرر هذا الدرويش العودة لبلاده، فقال لجدي:

البستان لك، عطية والد لولده، لقاء عملك المخلص فيه.

وبقي اسم البستان في بعض الوثائق، كما فهمت، «حائط الدرويش»[1]، وهو البستان الذي كان يحضر والدي منه القوطه ـ كما ذكرت سابقاً ـ وأعرف هذا الحائط، وحابوطه هو الذي يوقف «مطلق» الأبقار عنده، لتشرب بعد السرح، ويبدو أن جدي استطاع أن يوسعه بشراء ما بجانبه،

---

(١) لعله أصبح جزءً من البستان الذي ورثه جدي من والده في حي الشعيبية.

وهو لم يكن كبيراً، ولكن موقعه مفيد، لأنه يأتي بعد حائط الخياط، الذي تنتهي عنده بيوت الحي في تلك الجهة من عنيزة بجهة باب الخلا، وأمامه مسجد الشعيبية، وهذه من الميزات التي تجعله مهماً، وباب الخلاء باب من أبواب سور عنيزة الذي يحيط بها، وما بعد الباب، الذي يبدو أنه كان قويّاً ويحيط بالبساتين التي في تلك الجهة، نفود يكوِّن عائقاً طبعياً لأي جيش مناوئ.

وقد بقيت من هذا السور بقايا بعد أن تهدّم معظمه وهي تدل على إتقان تصميمه، والأسس التي قام عليها، والواقف عنده، إذا نظر إلى بعيد يرى «الخريجية»، وهي مزرعة في النفود، لعلها في وهدة هناك، نحن الصغار لا نصل إليها لبُعدها،

ولأن السير على الرمل العميق مدة طويلة ليس مريحاً، وفي كل مساء عندما نأتي لتهضيل الأبقار، نركز نظرنا طوال الوقت، باتجاه مزرعة الخريجية، لأن الأبقار أول ما تلوح في الأفق تلوح منها، وهي عائدة من ناحيتها.

ريح وظلمة:

في عام ١٣٥٣هـ في عصر أحد الأيام ذهبت لتهضيل البقرة، وقبل غياب الشمس بما يقرب من الساعة جاءت ظلمة قلبت خضار عسبان النخيل إلى سواد، ثم اختفى النخيل في هذه الظلمة، فلم نعد نراه ألبتة، وكنا مجموعة من الصبيان الصغار، أخذنا الرعب، فلم ندر ما نفعل، وكان العم محمد العلي السليم ـ رحمه الله رحمة واسعة، وأسكنه فسيح

جناته ـ ماراً، وقد قامت في تلك الأثناء عاصفة شديدة، وريح تبين فيما بعد أنها اقتلعت عدداً من أشجار النخيل، وكسرت بعضها، فجمعنا كلنا ـ رحمه الله ـ خلف ما تبقى من السور لنحتمي به، ووقف خلفنا حارساً، يردد كلمات الطمأنة، ويثبتنا، وقد امتلأنا طمأنينة بمجرد رؤيتنا له، وبقي كذلك إلى أن انجلت الغمّة، وعادت الأمور إلى مجاريها، ولا أحتاج أن أؤكد ما لحق بالبقر من فوضى وتشتت وضياع.

لم يُستغرب هذا العمل من هذا الرجل النبيل، فسمعته المضيئة كانت تسبقه، وشهامته في عنيزة لا تَخفى على أحد، وطلعته تفرح الناظر إليه، لما تخفي خلفها من نيّة حسنة، وشعور بالمسؤولية،

رغم أنه غير مسؤول، ولكن لأنه من أسرة الإمارة في عنيزة كان يقوم بما لم يكن يقوم به أحد، ولا يستطيع القيام به إلا هو، لأنه رجل كان يحكم نفسه، ويجهدها في مصلحة مجتمعه، وحمايته من طيش الشباب، ونزق الكبار، فكان يعس بالليل، تطوعاً منه وتبرعاً، وهذا يجعل الأشرار يختفون خوفاً منه، فلا يجازف أحد منهم بالخروج إلا لعمل ملح جائز.

فقد عُرف عنه هذا ـ رحمه الله ـ وحمد له، واعترفت بعمله الإمارة، وباركت هذا العمل، وشكرته، لأنه حمل عنها عبئاً ليس من السهل على الأمير أو رجاله أن يقوموا به، اللهم اقبل منه هذا وتولّه برضاك ورحمتك، وجازه بعفوك وغفرانك.

جدتي نورة المنيع:

اسمها نورة الإبراهيم المنيع، والدة والدي ـ رحمها الله ـ كانت متقدمة في السن عندما بدأت أدرك من حولي، ورغم أني لا أعتمد اليوم على مقدرتي على القياس في تلك الأيام إلا إني أعتقد أنها تميل إلى الطول، وقد يكون ذلك عائداً إلى نحافة جسمها، وأذكر أنها كذلك تميل إلى بياض البشرة، وصورتها دائماً مقترنة عندي بجلوسها في مصلاها في صفة الرحى، أو في روشنها أو في سطحها، ولا أكاد أتصورها في مكان آخر غير هذه الأماكن الثلاثة، كانت دائماً على خصافها (خصفتها) مستقبلة القبلة، تُسَبّح، وتورد، ولا أذكر أني رأيتها مع جدي أبداً جالسة، ولا أذكر

أنه ذهب إليها في غرفتها، ولا هي ذهبت إليه في القهوة حيث يقيم، وأكاد أجزم أنه في أول الأمر كان أنشط منها حركة، وقد زارها، على ما أذكر عندما مرضت، وقد يكون مرض الموت، وقد توفيت في يوم جمعة، وصلوا عليها صلاة الظهر، ولا أذكر الشهر وكان ذلك عام ١٣٥٦هـ، وهي السنة التي دخلت فيها المدرسة السعودية عندما فتحت في ذلك العام.

وأذكر أن إحدى يديها ـ رحمها الله ـ أصيبت بداء قالوا عنه: «عنكبوت»، وهو مرض يبدو أنه يؤثر على أعصاب اليد، مع بعض القروح، وكانت يدها مبسوطة، ولا تستطيع قبضها، بعد أن شفيت، وبقيت يدها هكذا إلى أن توفاها الله،

وكالمعتاد، لمعالجة مثل هذا الأمر أحضروا لها عثمان الونين، فكواها، وقد يكون الكيّ قضى على القروح، ولكن اليد بقيت معيبة.

لقد تغيرت بعض الأمور بعد وفاة جدتي، وأصبحت عمتي تقوم بدورها مع دور والدتها مع قلته في آخر حياتها، إذ لم يعد لها دور إلا في المشورة، ومباركة ما يتفق عليه. وأمر آخر تغير بعد وفاتها - رحمها الله - فالأماكن التي كانت تقيم فيها، وبالذات روشنها وسطحها كان محرماً علينا الصغار أن نقترب منها، لأن أرجلنا قد لا تكون نظيفة مما لا يبيح لنا دخول الأماكن الطاهرة، وهي حريصة على طهارة ما حولها. بعد وفاتها أصبح سطحها مسرحاً لجولاتنا، وما

أنظفه وأوسعه، ولم يعد هناك خصاف الصلاة، وصرنا ندخل من السوق حفاة، وقد نمر بحوش البقرة، وندخل السطح دون مراعاة للنظافة، فهي الشيء الذي لم يكن في برنامجنا اليومي، وأهلنا معنا في جهاد على غسل الأيدي قبل الأكل، ولم نعرف أهمية النظافة إلا بعد أن انتظمنا في أداء الصلوات.

كانت ـ رحمها الله ـ من أسرة كريمة موسرة، وترك لها والدها بيتاً واسعاً كبيراً، فسيح المرافق، وفي حي القاع الراقي، مع جيران متميزين، قريباً من مسجد القاع، بعد بيت النعيم وأمام بيت عقيل المحمد، وكان والدها ـ كما سبق أن ذكرت ـ كثير الضيوف، يقيم الكثير من الدعوات الكبرى، وكانت

صينيته «الكور»، التي يقدم فيها الأكل، كبيرة لا تدخل من باب القهوة، فوُسّع في الباب فتحتان على الجانبين، ليتمكن حاملوها من إدخالها.

لقد آلت هذه الدار إلى جدتي نوره، وإلى ورثتها من بعدها، وقد سبق أن تحدثت عنها عند حديثي عن عمتي موضي[1].

وقد علق في ذهني في تلك الأيام أن اسم نورة خاص بالعجائز كبيرات السن، فجدتاي كل منهما اسمها نورة، وبعض قريباتنا المسنات اسمهن نورة، ومنهن جدة أخي محمد، أم أمه، ولم أر بنتاً تسمى نورة، صغيرة السن، ومثل هذا الاسم مزنة وهيا، ومريم، وسلمى، ورقية، ولم

(١) صفحة (٥١) وما بعدها.

تتغير هذه الصورة في ذهني حتى ولدت لي أخت، وسموها نورة، فنسيت الصورة الأولى بسبب الصورة الجديدة، والأسماء التي كانت سائدة في ذلك الجيل هي: حصة، وموضي، ومنيرة، وعائشة، ومضاوي، ولولوة، وفاطمة، واليوم تغيرت الأسماء كلية، وأصبح ما كان حديثاً في زمن آبائنا قديماً اليوم، ودخلت أسماء من الأقطار العربية، وأسماء أخذت من الكتب من بعض الصفات اشتقاقاً، وأصبح اسم عبير، وأريج، وشذى، ولمى، وفوزية، وفايزة، وسعاد، وهديل، وهدى، وهالة، وندى، وغصون، هي وأمثالها السائدة.

عمي إبراهيم:

عمي إبراهيم هو أصغر أبناء جدي عليّ من الأحياء، وربما كان عثمان الذي مات شاباً أصغر منه، وكان والدي يعطف كثيراً على عمي إبراهيم، لأنه شقيقه وأصغر منه، وقد كفاه أيضاً أمر رعاية البيت في غيابه، وما أكثر غيابه وأطوله.

ووجود عمي إبراهيم مقيماً دائماً في عنيزة جعل الوالد يطمئن على ملاحظة والده ورعايته بعد أن كبر، وانشغل عنه الوالد بنشاطه التجاري، وهو ما كان يضطره للسفر كثيراً، فوجود عمي جعل الوالد لا يحمل همّاً في رعاية البيت ومن فيه، ولا أتصور ما كان يمكن أن يحدث لو

لم يكن عمي إبراهيم موجوداً، وكأنه مع أبي قد اقتسما المهمة، واحد منهما عليه ما يحتاجه البيت من مصاريف، والآخر يقوم بإدارة هذه الأموال، وهو عمل متوازن، لا يرجح جانب فيه على الآخر.

أما عن بدء حياة عمي فمن المعلومات المقتضبة المتناثرة يبدو أنه لما بلغ السن التي في المعتاد يفرد الشاب فيها الجناح ليطير في أرض الله الواسعة يبحث عن الرزق، ضرب عمي في الأرض يبتغي فضلاً من الله، ونشد هذا الفضل في أماكن عديدة، ومواطن مختلفة، وأراض بعيدة، إلا أن التوفيق لم يكن حليفه، ولعلَّ السبب أنه اتجه غرب الجزيرة العربية، في حين

أن نجاح التجارة، بإذن الله، كان في شرقها.

تقول عمتي إن من بين ما كان يتاجر به التمر، وقد سار إلى أفريقيا، فعبر البحر إلى الحبشة، أو الصومال، أو أريتريا، أو جيبوتي، ثم باع بضاعته من التمر هناك، ولكن المشتري ماطل في تسديد القيمة، ومر وقت طويل، فمرض أحد أبناء الأسرة التي اشترى كبيرها التمر من عمي، مرضاً شديداً، وأشرف على الموت، فقالت لهم أمهم العجوز:

إن هذا المرض الذي أصاب ابنكم بسبب أكلكم مال هذا الغريب، ادفعوا له حقه ينج ابنكم.

فدفعوا له حقه، والله أعلم كم استهلك

قبل أن يدفعوه له، أسلافاً وقروضاً. بعد هذا قطع البحر إلى عدن في وسيلة بدائية كادت أن لا توصل راكبها، ومن عدن إلى المملكة، وكان منظره كئيباً ـ رحمه الله ـ بعد هذه الرحلة الشاقة، إذ لم يعرفه الوالد عندما دخل عليه، لولا أنه عرّفه بنفسه، ويبدو أن طول المدة أثناء غيابه أيأست أهله منه، ومن عودته، وتروي عمتي أنه عندما بدأ طريق العودة من البلد التي كان فيها، وهي بعيدة عن الساحل، كان يمر بأنهر يعبرها الناس على أخشاب، ومر بهذه الأنهر على هذه الأخشاب حتى وصل إلى ميناء يقابل ميناء عدن، ثم اجتازه إلى عدن نفسها.

وأصبح من غير المتوقع بعد هذه التجربة

أن يعاود البعد عن المملكة، واكتفى بالبقاء في عنيزة يزاول تجارة الجملة بنشاط محدود، وكان متعلقاً بطلب العلم، ولكنه لم يقطع فيه شوطاً بعيداً، لأنه بدأ ذلك على كبر.

وأذكر أن إبهام إحدى قدميه كان معيباً، منحنياً إلى أعلى ثم إلى الخلف، وقد فقد الظفر مما ساعد على هذا الالتواء، وهذه العاهة نتجت عن لدغة حيّة عندما كان في أفريقيا، ومع هذا فلم أرها أثرت على سيره ومشيته.

كان ـ رحمه الله ـ كريم العين، ولا أدري متى فقد عينه، ولا أعرف أسباب فقدها، والعين المفقودة هي اليسرى، كان عمي في تقديري في ذلك الوقت، أطول قليلاً من والدي، وأملأ

جسماً، وقد خطه الشيب قبل والدي، رغم أنه أصغر منه سنّاً، ولعل ما مرّ به في أفريقيا من متاعب له دخل في هذا.

كان ـ رحمه الله ـ ينشغل ذهنه عند مقابلة أي صعوبة، ولعل هذا آت من شعوره بالمسؤولية تجاه أسرته، خاصة أمام الوالد، وكان يبدو عليه الانفعال و«يأكل نفسه»، ولكنه لا يفقد اتزانه، وكان عف اللسان، لا يتلفظ بألفاظ نابية، ولم أسمعه رافعاً صوته على أحد مهما كان خطأ من أمامه، وكان محبوباً ممن حوله، خاصة الأقرباء والأرحام، ومن كبار رجال الأسر الكبرى في عنيزة.

كان ـ رحمه الله ـ يلبس «شُطفة» من شطف

العراق، كما كان كثير من كبار القوم يلبسونها، ويقل مقام من يلبس العقال حينئذ، وللتفرقة بينها وبين الشطف القصب تسمى هذه «حداجة» لشبهها في انتفاخ الصوف الداخل في صناعتها بحداجة البعير، وهدفها وقاية ظهر البعير من ضغط الحمل، وخشب الشداد، ولكن هذا الاسم لا يذكر أمام لابسها إكراماً له.

وكان مثل كثير من أمثاله في ذلك الوقت، لا يمشي إلا وبيده عصا، لا ليتكئ عليه، ولكنه مظهر يكمل صورة الرجولة، والعمل الرئيس لها في الأصل هو للتحكم في الدابة عند الركوب والنزول وعند التحميل، وعندما تقف حاجزاً في طريق المارة، وبقي استعمالها عند خروج

الشخص لصلاة الفجر، لأن الكلاب السائبة الشرسة تدخل البلد في الليل تبحث عن بقايا أكل أو عظام، وشراستها تجعل من المتوقع لها أن تهاجم من يمر بها، وقد حدث هذا مع بعض الناس، خاصة حول البيوت الواقعة في ضواحي البلدة.

والعصي، مثلها اليوم، أنواع، منها الرفيع، ومنها المتوسط، ومنها المتين، ومنها المدبب الرأس، ومنها المقوّس الرأس، وعصا الخيزران من العصي المطلوبة والمفضلة، ومعكوف الرأس يسمى «باكورة» ومنها ما يسمى «سيسيَّة»، والذين لا يستطيعون شراء عصا الخيزران يكتفون بعصا من شجر الأثل، يختار من غصن طويل مستقيم،

قليل «الوبن» والوبنة هي ملتقى الغُصين بالغصن، ويكون بارزاً يحتاج إلى تهذيب.

وهناك «المحجان»، وهو عصا قصير متين، يختار من غصن من أغصان شجرة الأثل، وكونه متيناً يسمح بنحت رأسه ليصبح مثل الكُلاَّب، والمحجان مهم وله استعمال متعدد الجوانب، وبعض فائدته تشبه فائدة الباكورة، ويستعمل أكثر ما يستعمل من الجمّالين؛ ولا يحمله من يتوقع أن يحمل الباكورة أو السيسيَّة.

وكان خلف باب بيتنا من الداخل على ما أذكر عدد من العصي المتنوعة، يختار جدي عند خروجه ما يشاء وكذلك الوالد وعمي، وفي الغالب يستقر كل واحد على عصا بعينه،

ووالدي لا يغيره إلا عند السفر، فللإقامة عصا، وللسفر عصا.

والعصي أداة إهداء، فمن قدم من سفر، وجاء من بلد يزدهر فيه سوق العصي، فخير هدية يحضرها العصا، وهي منافس جيد للسبح.

ونحن لا نفكر آنذاك في أن نأخذ من هذه العصي عصا، لأنها أطول منا، ولأنها أداة جريمة في يدنا، تغري بالقتال! وكان يكفينا عصا الأثل.

وعلى ذكر كلمة أطول من أحدنا أروي مقطعاً من حديث بين الملك فيصل ـ رحمه الله ـ ويوسف العبدالله الفوزان جرى في بيت الملك فيصل في حي المعذر، ونحن في انتظار العشاء،

وكان يوسف حينئذ سفيراً، وهو الذي كان والده محط رحال القادمين من نجد، واحتفى احتفاءً كبيراً بالملك فيصل عندما زار الهند، وكان عمره ـ كما فهمت ـ اثنتي عشرة سنة.

وتطرق الحديث إلى تلك الرحلة في تلك الجلسة بكلمة قالها يوسف، فقال الملك فيصل:

رحلتي تلك يوم كان سيفي أطول مني!

وابتسم ـ رحمه الله ـ فلما انصرف الحديث إلى موضوع آخر، وإلى وجهة أخرى من المجلس، قال لي يوسف، همساً:

هل لاحظت ابتسامة الملك حين قال كلمته؟

قلت نعم، ويبدو أنه ابتسم للتشبيه الذي أعطاه.

قال لي يوسف: لا، هناك قصة مضحكة، وهي التي أضحكت جلالته، وهي أنه بعد الغداء خرج والدي مع جلالته يمشيان في الحديقة، وكنت في عربة يدفعها خادم، وعمري في حدود السنتين أو الثلاث، فلما اقتربا مني قال الوالد، موجهاً الكلام لي:

قم سلّم على عمّك.

فلم أنهض، وأقمت مكاني متمسكاً بالعربة، فمد والدي يده وانتزعني من عضدي انتزاعاً، فرأى الماء يخرّ مني، فعرفا ـ رحمهما الله ـ السبب في عصياني، فابتسامة جلالة الملك الآن ليذكّرني

بهذه الحادثة.

السفير يوسف ـ رحمه الله ـ كان خفيف الظل، وكريم المعشر، حديثه لا يمل لطرافة القصص التي يرويها، وأغلبها من الواقع، وقد ورث عن والده ـ رحمه الله ـ كثيراً من الطباع الحسنة.

نعود إلى عمي إبراهيم ـ رحمه الله ـ فقد كان متديناً محافظاً على جميع الصلوات في المسجد، وكان طالب علم عند الشيخ عبدالرحمن الناصر السعدي ـ رحمه الله ـ ولكن يبدو أنه ـ كما سبق أن قلت ـ لم يبدأ إلا متأخراً، مما جعله لا يجاري الشادين في العلم، والشيخ عادة يدرس عنده المبتدئ والشادي، ولكل واحد منهما وقت

أو يوم، ولا أظن أن عمي كان ملتزماً بأوقات دروس الشيخ، مع أنه يحب أن يزداد من علوم الدين، وكنت نادراً ما أراه يفتح ملزمة يبدو أنها هي الدرس الذي يقرره الشيخ في وقت من الأوقات.

كان عمي ـ رحمه الله ـ إذا صلى العشاء عاد إلى البيت، ولا يذهب مثل غيره إلى القهاوي، التي يكون فيها السمر بعد العِشاء، وكنت أراه يمشي على السطح الذي ينام فيه ويقرأ أثناء ذلك ورده، وكان قبل أذان المغرب يذهب، بدون مشلح، مثل غيره، خارج عنيزة إلى أحد البساتين مع أحد أصدقائه، فيتوضآن، ويعودان للصلاة في مسجد الجامع، وبعد أن

كبرت، وأصبح جدي لا يستطيع أن يذهب إلى المسجد، بعد أن كبر، صار عمي يأخذني معه، وقد شعرت أنه يفاخر بي، وقد أخذني عدة مرات، وكنت أسعد بذلك، وأسر بهذه الرفقة، وأشعر بارتياح لقربي منه، شاعراً أني بدأت أدخل مرحلة الرجولة، وأن مَن أحبّه وأقدّره يعترف بذلك.

والآن أشعر بأسىً لأني لم أكن قريباً منه عندما بدأت «أشم المرجلة» فعلاً، وبدأت أميّز الأمور، وأعرف الدنيا، ويكون لي فيها اهتمام، واكتشف جوانبها ومرامي الأمور فيها، وأحسست حينئذ أنه ـ رحمه الله ـ بدأ يشعر أنه بإمكانه التحدث إليَّ حديثاً يخرج عن الحديث مع طفل، ويشعر

أن في الأسرة، من الجيل الجديد، من بدأ «يعانق الرجال» ويتساوى معهم، ولكن ذهابي إلى مكة اعترض هذا التطور.

وما أزال أجتر بسعادة وحبور ذكرى سويعة قضيتها معه ونحن في طريقنا إلى أحد البساتين للوضوء لصلاة المغرب، ولم يكن هو المتكلم بل كنت أنا المتحدث، وهو المستمع، فقد حدثته، عندما جئت في زيارة خاطفة لعنيزة، محرماً [illegible] موضي - رحمها الله - وانصب حديثي عما كان يود معرفته عن مكة وأهلي فيها.

كان - رحمه الله - ودوداً، وكنت أشعر بحنانه، وأقدّره وأحترمه، وأشعر بخجل شديد، يحمرُّ له وجهي، إذا ما بدر مني خطأ ثم علم عنه

فيما بعد، كان هذا يحدث عندما كنت صغيراً، وأذكر مرة أن وجهي احمّر خجلاً، وتمنيت أن الأرض ابتلعتني قبل أن يكتشف السر الذي كنت أخفيه، كان ذلك عندما عاتبني، مداعباً، على أمر لم أكن أعرف أنه يعرفه، كان عمري في حدود الحادية عشرة، كان لنا جيران نذهب بين صلاة المغرب والعشاء نسمر عندهم في حوش صغير لهم لا ضوء فيه إلا ضوء القمر في الليالي المقمرة.

كنا نجلس معاً صغاراً وكباراً، وكان لهم ابنتا عم، واحدة أكبر من الأخرى بسنة، وكانتا أكبر مني، وكانتا في سن الزواج، ومن باب الهزل عينوا الكبرى زوجة لي، والصغرى لابن

عمي صالح، وصادف أن الكبرى تزوجت في ذلك العام، وأذكر أنني ذهبت إلى بيتهم، وسلمت عليها صبيحة يوم العرس، بعد أن خرج زوجها «ليفيض» أي يدخل إلى السوق ويبقى فيه إلى قبيل الظهر.

ولم أكن أدري أن عمي يعلم عن هذا الترتيب القائم بيننا وبين زوجتينا الوهميتين، وكنت عائداً معه في اليوم التالي للزواج من المسجد، فلما «وازنا» بيت أهل زوجتي «المبجلة» التفت إليّ ـ رحمه الله ـ وعلى وجهه ابتسامة حنان، كأني أراها الآن، وقال بلهجة عتاب رقيق حنون:

يا عبدالعزيز، كيف رضيت أن يأتي شخص ويتزوج زوجتك؟

فألجم لساني عن الجواب، وطأطأت رأسي كأني أقول: يا أرض ابلعيني، ولم تغب عني ابتسامته وهو يرى حيائي المتناهي، وحيرتي في الجواب ـ اللهم أسكنه جنات النعيم.

ولا أذكر أنه ـ رحمه الله ـ غضب مني إلا مرة واحدة، ولم أكن مخطئاً، ولكني دخلت ضمن مجموعة مخطئة، وذلك أن صالح الحمد القرعاوي ابن عمتي، وأختي التي تكبرني، وأنا معهم، كنا في حوش البقرة، وكانا آمنين من أن يراهما أحد، فأخذا يتناوبان الركوب على ظهر البقرة الهادئة، وهذا أمر غير مقبول من الكبار، فرآنا عمي ـ رحمه الله ـ فهربنا إلى أقصى البيت، وتبعنا، فدلفنا إلى بيت الفهد، وأبعدنا في التوغل، فلم يتركنا

حتى حصرنا في غرفة لا منفذ لنا منها، فوبخنا، وسفّه عملنا، وتوعدنا إن عدنا. ولعل ما نالني في هذه المرة من عقاب هو انتقام من الله للبقرة عن مرات سابقة ركبت فيها البقرة.

أما ابنه صالح فكثيراً ما تعرض للتأديب، «سطرة» على الخد، أو قرصة أذن، أو كفاً على الرقبة، وقد تأتي رجفة بالرجل، أذكر أن صالحاً أدخل عوداً في جحر «قعوسة» وتلفظ بألفاظ نابية، لا تليق بابن حمولة، وخاصة في سنه، وكان منسجماً أمام ضحك الآخرين، الذين رأوا والده مقبلاً من خلف صالح، وزاد ضحكهم لما رأوه، لمعرفتهم بالجزاء الذي سيوقعه على صالح، فظن صالح أن زيادة الضحك زيادة في الإعجاب،

ولم يدر إلا بالكف ينزل على «علباه»، فأدرك أن والده كان واقفاً على رأسه يرى فعله المضحك، ويسمع قوله المزعج! وعمل صالح ليس غريباً على الصغار ولكن سوء حظه أنه وقع في يدي عمي الحريص على التقاليد، والذي يستهجن الشتائم حتى لو كانت موجهة إلى القعوسة.

استقر عمي في عنيزة بعد رحلته إلى أفريقيا وعودته، وصار يجلس مع جدي في الدكان في سوق المسوكف، وهو من أهم الأسواق، وأذكر أن دكان العم محمد الناصر العوهلي، وأخيه عبدالله، كان أمام دكاننا، ومستواه أخفض قليلاً، وكان في دكاننا قماش في بالات، تُعطى «طاقة» منها لأحد الدلالين يحرج عليها تمهيداً لبيع البالة حسب

العينة، ومن يشتريها يبيعها بالقطاعي، فلما ضعف جدي، وأصبح المسوكف بعيداً عليه، صار يقعد أغلب جلوسه عصراً للتسلية عند دكان إبراهيم القطن، يُروِّح عن نفسه برؤيته للناس، ورؤيتهم له، وانتقل عمي إلى دكان بالهفّوف، مستأجر، وهو أقرب إلى بيتنا، ولعل هذا الدكان سمح له بأن يبيع بالقطاعي مع الجملة، ثم تقلص عمله التجاري، وصار الجلوس في الدكان للتسلية، وإزجاء الوقت، وعدم الانقطاع عن الناس، ويجلس عنده من «يفيضون» للسوق، ممن ليس لهم دكاكين، ومن هؤلاء بعض الأقارب والأصحاب من أسرة البسام والشبل وغيرهم، وبعض من جاء من سفر، سيبقى في عنيزة مدة محدودة، يغادر بعدها إلى الهند أو البحرين أو البصرة أو مكة أو غيرها.

وكان باب الدكان مرتفعاً قليلاً، ومع استمرار ضعف جدي أصبح لا يذهب إلى هذا المكان رغم قربه، وهذا هو الذي دعاه إلى الجلوس عند إبراهيم القطن في دكانه، لقربه وانخفاضه، وبقي كذلك إلى أن أصبح قعيد البيت، وسافرنا نحن إلى مكة، ومات بعدها بسنة وبضعة أشهر.

ويبدو أن عمي أيضاً ترك الدكان، إذ لم يعد يدر عليه شيئاً، وقد أهدى والدي لعمي بيت الفهد، بعد أن تفرقت الأسرة، وصار البيت الأصل كبيراً على من فيه، ولم يعد هناك حاجة لبيت الفهد، وقد باعه عمي فيما بعد.

وفي عام ١٣٧٣هـ جاء عمي إبراهيم إلى مكة للحج، هو وزوجته وابنته، ثم عاد إلى عنيزة،

وقد التحق ابنه صالح بعمل في البحرين عند أحد تجار آل قاضي هناك، وعاد عمي لحياته المعتادة في عنيزة.

وفي رجب من عام ١٣٧٧هـ توفي عمي في عنيزة إثر مرض لم يمهله إلا أسبوعاً واحداً، ولا أدري ما هو المرض، وبعضهم يقول: إنه أصابته عين، لأن المرض أقعده بالبيت بعد أن عاد من «تشبية» (إلقاح) البقرة، وهذا بعيد عن القبول، لأن العين في المعتاد تذهب إلى البقرة لا إلى من معها.

وتشبية البقرة أي أخذها لثور ليلقحها، مهمة مزعجة من عدة نواح، لأن البقرة إذا «أعطت» (طلبت الثور) تخور خواراً متواصلاً مزعجاً، وتقلق من في البيت، وتقلق الجيران، فيضطر صاحبها

إلى الإسراع بها إلى الثور، ويكون هذا الثور عادة «سبيلاً» في إحدى المزارع غالباً، ونحن عادة نأخذ بقرتنا إلى ثور السبيل، في حائط الدغيشرية، والسبيل يبدو أنهم هم الذين كانوا حينئذ يفلحونها، وصفّة الثور لها باب على الشارع.

جئت في إحدى مرات تشبية بقرتنا، أنا وعمي، وطلب مني عمي أن أمسك الحبل الذي في رقبة البقرة، وأثبتها جيداً، فلما أقبل الثور رأيته هاجماً عليّ، متجاهلاً البقرة، فقفزت على «المعلف» بسرعة فائقة، وتركت البقرة، فلامني عمي على هذا، وكان يريدني أن أناور، فإذا أقبل على من جهة انتقلت إلى الجهة الأخرى، وكان عمي ـ رحمه الله ـ خلف البقرة والثور، ولكني كنت أجبن

من أن أناور ثوراً هائجاً، واللوم والعتب أسهل عليّ، فليس فيها ذهاب روح على قرني ثور!!.

وعند وفاة عمي إبراهيم كنت في إنجلترا أدرس للدكتوراه، وأخي حمد في فرنسا، وأخي محمد في مكة، كم كنت أود أني كنت في مكة عندما جاء حاجاً، لأروي ظمئي من رؤيته ـ رحمه الله ـ وآخذ منه تاريخ الأسرة، فقد كان الوقت مناسباً، فأنا الآن متعلم أحمل البكالوريوس، وأعرف المجالات المهمة التي يمكن أن أسأله عنها، وأُحسن إلقاء الأسئلة، وهو لا شيء عنده يشغله عني والإجابة على أسئلتي، وأنا لا أستحيي منه، ولكن الله لم يرد هذا، وما يأتي من الله، فبلا شك، هو خير مما أتمناه.

هذه لمحة قصيرة عن عمي إبراهيم - رحمه الله - مما أسعفت به الذاكرة، أو أخذته من أخي محمد، فهو أقوى مني ذاكرة، وفي بعض الأمور كان مشاهداً لها، فوفاة عمي مثلاً أخذتها منه بتفاصيلها. لقد كنت أحب عمي وأقدّره، لأنه أولاً عمي، شقيق والدي، وثانياً لأنه ربّاني خير تربية في غياب والدي، وثالثاً لأنه كان يعطيني الثقة بنفسي عندما قاربت سن الرجولة وكأنني ابنه.

كان - رحمه الله - هو رجل البيت العامل، بجانب جدي، ومع تهيبنا منه كنا نحسّ بدفء حنانه، ونشعر بالحماية بوجوده - رحمه الله رحمة الأبرار.

عمتي حصة:

لا أدري متى توفيت - رحمها الله - فأنا لا أذكرها، ومن المؤكد أنها توفيت قبل أن أولد، أو قبل أن أعي ما حولي، ولا أدري ما عمرها حين توفيت، ولكني أستنتج من بعض الحوادث أنها أكبر من والدي، لأن جدي عندما يرفع يده ليضرب والدي، وهو نوعاً ما صغير، تأديباً له على فعل خاطئ ارتكبه، أوجب ضربه، أو صفعه، كانت - رحمها الله - تحول دون ضربه، وقد تتلقى الصفعة عنه، ولمعرفتي بقوة جدي أتصور أن الضربة شديدة، ولم ينس والدي - رحمهم الله جميعاً - لها هذه المواقف النبيلة، فقد سافر محرماً لها عندما عزمت على الحج، وخدمها خدمة جلّى،

فقد كانت حبلى، وأسقطت وهي في الطريق، ورغم أن معهم عتيقة، صاحبتهما لتخدمها، إلا أنها لم تفعل، وكانت تقول: «ما أشتهي» أي أنها تتقزز من غسل ما يحتاج إلى غسل، من ملابس وغيرها، فكان ـ رحمه الله ـ يقوم بذلك على مياه الغدران التي يمرون بها، وكان مسروراً بهذه الخدمة، وسعيداً بهذا الدور، وصار خادماً لها ولخادمتها.

وقد سكنوا عندما وصلوا مكة ضيوفاً عند الشيخ عبدالله الجفالي، والد إبراهيم وعلي وأحمد وسليمان، في بيتهم الذي في شعب عامر، وبقي معروف الجفالي مطوقاً عنق الوالد ـ رحمه الله ـ فقد أخبرني الشيخ إبراهيم الجفالي، في أحد الأعياد،

ونحن في الطائف، أن الوالد قام لهم بعمل رد فيه جميلهم أضعافاً لما عملوه معه هو وأخته عندما حجوا، ولست في حل أن أذكر ما عمل، ولكن الشيخ إبراهيم ـ رحمه الله وأسكنه فسيح جناته ـ كان يسبقني إلى التهنئة بالعيد، ويأتي من مصلى العيد رأساً إلى بيتي، وأحياناً يصل قبل أن أصل، وكنت أعاتبه على هذا التفضل، وأحتج بأن الحق له، لأنه صديق والدي، وأكبر مني سناً، فيقول لي: إني أهنئ فيك عبدالله الخويطر الذي لا أنسى جميله، فأقول له: إن جميلكم سابق، وما عمله والدي محاولة لرد الجميل، فيقول: ما كنا نقوم به من استضافة الوافدين من عنيزة أمر عام لكل من يختار ضيافتنا، أما عمل الوالد معنا وهو مدير مالية مكة فإنه لم يعمله مع غيرنا، ولم

يعمله أحد معنا غيره ـ رحمهم الله جميعاً ـ فقد كانوا يتسابقون إلى الخيرات، والفعل الحسن، دون منّة، أو مفاخرة.

والأمر الثاني الذي يجعلني اعتقد أن عمتي حصة أكبر من والدي أن لها ابناً هو أكبر من أختي وهي أكبر أبناء أبي سناً، وبينه وبينها ما لا يقل عن عشر سنوات.

وسوف أتحدث في الجزء الخاص بذكرياتي في مكة ـ إن شاء الله ـ عن ابنها عبدالله المحمد العوهلي وأبنائه، وقد مر شيء عنه عرضاً مما اقتضاه المقام.

عمتي مضاوي:

وأود الآن أن أعرج على عمتي مضاوي ـ رحمها الله، فهي أكبر قليلاً من عمتي موضي، وأصغر من عمتي حصة، التي لم أعرفها، فقد توفيت، على الأرجح، قبل أن أولد، أو قبل أن أعي الأمور حولي، وهي والدة العم عبدالله المحمد العوهلي ـ رحمه الله ـ والد الأخ عبدالرحمن، والدكتور عبدالعزيز، وصالح، وعلي، ومحمد، ويوسف، وعثمان، وأخ الفريق حمد العوهلي.

وعمتي مضاوي، كما قلت، محبوبة من جميع من حولها، وممّن عرفها، وقد أخذت بطرف من العلم، ولا أزال أذكر مجلسها عند باب «المصباح»، عصر كل يوم تكون فيه عندنا في رمضان تقرأ

القرآن، وكأني أسمعها تقرأ بطريقتها المميزة بنغمة هادئة متأنية، تبدأ بصوت مسموع مع أول الآية، ثم يأخذ في الانخفاض حتى لا يسمع صوتها، وأحسّ الآن بيدها وهي تربت على كتفي، وتمسّد شعري، وأنا مضطجع بجانبها ورأسي على فخذها حتى يغلبني النوم أحياناً، ولا أشك أني لو حلمت في تلك النومة فحلمي لابد أن يكون مبهجاً مثل ابتسامتها ـ رحمها الله .

وقدتوفي زوجها حمد الإبراهيم العثمان القرعاوي ـ رحمه الله ـ بعد ولادتها ابنها عبدالرحمن، ثالث ابن لها، فانتقلت عندنا هي والأولاد،وسعدنا بهم كثيراً، وكنا نفرح بمجيئهم قبل وفاة والدهم عندما يأتوننا يوم الجمعة، فلما أصبحوا معنا

طوال الأيام كانت سعادتنا بالغة. أما صالح الابن الأكبر فكان يذهب إلى بيت جده وأعمامه في بعض الأحيان، ثم صار يسافر معهم إلى الشام في رحلاتهم السنوية، وكان يقال لمن يسافر إلى الشام للتجارة «يُغَرِّبُون».

والرحلة التي أخذوا صالح معهم فيها رحلة مايزال صالح يذكر تفاصيلها، وأعتقد أنهم أخذوه رغم صغر سنه لعطفهم عليه، وكأنهم يريدون أن يروه في مكان والده الذي عز عليهم أن تخلو الرحلة منه، ووالده حمد ـ رحمه الله ـ كان محبوباً، وأخ عزيز عليهم، وعلى كل إنسان عرفه، يتصف بالهدوء والأناة، ولا يعرف الانفعال أو الغضب، وكان ـ رحمه الله ـ كريم العين، متوسط القامة.

أسرة إبراهيم العثمان القرعاوي كانت أسرة كبيرة، متعددة الأفراد، وكان هؤلاء الأفراد ممن أبقوا طريق الشام مزدهراً، وكانت تجارتهم الرئيسة الإبل، وقد أخذ الموت يخترمهم واحداً واحداً، حتى كاد أن يتلاشى هذا البيت، فمنهم من مرض ومات، ومنهم من مات بالكبر، ومنهم من مات بالعطش في قصة معروفة.

لم يندم أعمام صالح وأبناؤهم الكبار على أخذ صالح معهم، فهو وإن كان عبئاً عليهم في المسؤولية نحوه لصغره فقد ردّ معروفهم بطريقة لم تكن متوقعة، وأفادهم فائدة عظمى، وذلك بسبب صغر سنه، مما يعني أن مصدر العبء صار مصدراً للراحة! لقد ظهر عليهم عندما اقتربوا

من الشام قطّاع طرق، وكتّفوهم، وأخذوا ما معهم وهربوا، وصالح لصغر سنّه لم يكن وثاقه محكماً، فنجح في فك قيده وقيود الآخرين، وبهذا دفع حصته في هذه الرحلة!!

وعندما أفكر الآن في رحلة صالح الشاقة هذه، وكيف رضيت والدته بها دون محاولة لصده، وكيف صبرت على غيابه، ولم يبد منها القلق عليه، أجد أن الجواب هو أن صالحاً كان في سنّ خطرة، وله اتصال بشباب في سنّه أو أكبر منه، وقد رأت سفه بعضهم في تربية الكلاب، وإهمال الدراسة، فرجّحتْ أن سفره سيبعده عن هذا المحيط، وأن سنّه سوف تدخله مرحلة جديدة فيها السلامة من الأضرار.

صالح الحمد:

صالح الحمد أكبر مني قليلاً، كما بينت في مكان آخر، ولابد أن عمتي تزوجت قبل ولادتي بنحو ثلاث سنوات، ولهذا عندما توفي والده صار يعاود الذهاب إلى بيت جده وأعمامه في حي «المقيبلة»، ويأتي للنوم عندنا، وكان بيت القراوعة كبيراً، وممتلئاً بالأبناء والأحفاد، وكان غياب صالح طوال اليوم يقلق والدته لأنها كانت تحس أن أهله لعطفهم عليه بصفته يتيماً، «يتراخون» معه، ويلينون، ويدلّلونه، وكانت تخشى عليه من رفقاء السوء، وقد تأكد بعض ما خافت منه، فقد لاحظت في يوم من الأيام آثار سمن في جيبه، فاستدلت من ذلك أنه يضع بعض الطعام فيه،

وهذا يوحي بأن له كلباً يربيه، في الغالب في منطقة «الشريمية»، على حافة إحدى المزارع، في خرابة هناك، أو صف أثل، وقد صح حدسها، وجابهته بما استنتجته، فأقسم أغلظ الأيمان أن ما في ثوبه ما هو إلا من جلوسه عند فلان بائع السمن، لكنها لم تصدقه، واكتفت بتنبيهه لما عرفته وقد كان يظن أنها لن تعرفه.

وكان ـ رعاه الله ـ في الحقيقة يأخذ بعض الحنيني والعظام يَبُرُّ بها كلبه، والحنيني وجبة فطور في الشتاء مكوَّنة من التمر والبُر والسمن.

لقد وفق الله صالحاً بالبِّر بوالدته برّاً نرجو أن يكون كفّر عن بعض ما كان يفعله مما كان يقلقها ويشغل بالها، ولقد نضج بسرعة، ونفعه

أن كان عصامياً شقَّ طريقه بنفسه، عن طريق هو أصعب الطرق، وهو رجل عطوف حنون رقيق، بارّ بأقربائه، واصل لرحمه، يتميز أنه لا يغتاب أحداً، ولا تخرج منه كلمة نابية أو جارحة، ولا ينتقد أحداً، ولا يطعن في أحد، فكان قدوة لأخويه عبدالله وعبدالرحمن.

عبدالله الحمد:

أما عبدالله الحمد القرعاوي فقد تكلم عن نفسه في مذكراته وذكر تفاصيل حياته معنا، والصلة التي بيننا وبينه، وسجّل الحياة التي عشناها معاً، وما كتبه لا يحتاج إلى مزيد، إلا أن هناك طُرفة من الطرائف عنه تظهر كيف يكون الإنسان في صغره، ثم يختلف كليّةً في كبره:

كان عبدالله في صغره، وفي عمر لم يتجاوز ثلاث سنوات، مزعجاً لوالدته، إذا بكى.. بكى بصوت عال ومتصل لوقت طويل، ولعل هناك سبباً لا أذكره الآن لبكائه هذه المرّة، ودخلت «خُوَيرة» روّاية بيتنا، وعلى ظهرها القربة، ورأت عبدالله على هذه الحال، وكانت تسميه دائماً «أبو شرين»، فقالت:

ماذا حدث حتى جعل «أبو شرين» يزعج الدنيا هكذا، فسمعها والتفت إليها بحنق وقال:

«ذنا».. «ذنا».

ولأنه صغير نطق الزاي ذالاً.

فتراجعت ـ رحمها الله ـ بسرعة، وقالت:

لا، يا أبوي، أبو خيرين، أبو خيرين، وكأنها

تعرف أنه بعد أن كبر أصبح أبا خيرين أو أكثر، فالخير ينهمر من سحائب طيبه، وسماحته، وهدوئه، وأصبح قرّة عين أمه، لأن صالحاً ما لبث أن سافر وراء العمل، وطلب المعيشة، وعبدالرحمن ـ رحمه الله ـ كان مايزال صغيراً، يحتاج إلى رعاية.

ولعلّه يحسن هنا أن أتحدث بشيء من التفصيل عن «الرَّوَّايات».

فالرَّوايات نساء يحملن الماء على ظهورهن نهاراً من بئرين عرفتا بحلاوة مائهما في عنيزة، احداهما اسمها «القُسيم» والأخرى «الحويطة»، وكانتا متقاربتين، ليس بينهما إلا مسافة محددة، وكانتا من أوسع الآبار، ويبدو أن هناك جانباً من جوانب البئر ترك سبيلاً للرَّوايات، ومنظر

الروَّايات وهن يحملن القرب فريد، تراهن ذاهبات خفيفات، وعائدات ثقيلات، تئن الواحدة منهن تحت حملها، خطوها قصير، ومشيها وئيد، وكأن هذه المهنة وقف عليهنَّ، وتكاد كل واحدة منهن تكون من أصل أفريقي، ولهن من قوّة البنية ما يجعلهن قادرات على حمل القربة بما فيها من ماء كثير ثقيل.

وعرف عن الرَّوايات أنهن خير ناقل للأخبار، فهن كمحطات إذاعة، يشعن الخبر سواء كان نافعاً أو ضاراً، ليس للبيوت اللاتي يدخلنها سر، ولا يفرغن حمولتهن دون أن يجلسن بعض الوقت للراحة،، وتناول ما يستحققنه من الضيافة، إما تمر وماء أو تمر ولبن، أو شاي.

وحالهن هذه تجعلهن يقمن أحياناً بدور الخاطبات، لأنهن يرين البنات وهن يرضَعن، ثم يرينهن وهن يكبرن، حتى يصلن إلى سن الزواج، ودخولهن البيوت بهذه الصورة يجعلهن قادرات على إعطاء فرصة الخيار لمن يبحث عن زوج.

ومن الطرائف التي تُروى عن عدم دقتهن في نقل الأخبار، وخطفهن الخبر خطفاً دون تمعن وتحقق، أن جيش الملك عبدالعزيز كان يزحف متجهاً إلى مكة، فسمعت إحداهن أخرى تقول:

«البارحة قرصتني بقّة» أي ناموسة.

فظنتها الأخرى تقول:

«البارحة فُتحت مكة».

وسرعان ما طار الخبر في عنيزة بأن مكة فتحت، ودخل هذا الخبر كل بيت بكفاية يحسدها عليها

الإعلام اليوم.

ومن أراد صورة أخرى عن انتشار الخبر بهذه الطريقة، فلينظر في كتاب الأخ الأستاذ عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع: «مقتطفات من القصص والنوادر والأمثال والأشعار النجدية»، «سنة الهرار» (ص: ٥٦).

عبدالرحمن الحمد:

عبدالرحمن الحمد القرعاوي، شقيق صالح وعبدالله الأصغر، توفي والده وهو صغير، وانتقل مع والدته من عنيزة إلى مكة، فبهرته مكة، وألهته مظاهرها عن الدراسة، ولم تستطع والدته حُكمه لعناده، ولأنها تحس أنه يتيم فلا تريد أن تقسو عليه، وهذه نظرة كل من حوله منا، وليس من بين من

في البيت من هو في سنه ليلعب معه؛ فشعر بقلق أصبح بسببه مزعجاً لوالدته، فهو عندما جاء مكة كان في سن تسمح له بالخروج إلى الشارع،فصار يبعد قليلاً عن البيت، وكان بيتنا حينئذ في شعب علي، ويصل به السير إلى أجياد الحي المعروف في مكة، حيث يتمرن رجال الشرطة على نظام السير، والوقوف والدوران ووضع السلاح ورفعه، وما إلى ذلك مما كان شاذّاً للناظر. فكان عبدالرحمن يذهب يومياً إلى هناك، يراقب هذه التمارين، ويستمتع بالموسيقى التي تواكب هذه الحركات، فإذا مشت فرقة الموسيقى أمام صفوف الجند، مشى هو أمامها، وكان حامل الطبل الكبير رجلاً سميناً، يجد الطبل راحة على صدره وبطنه، فحفظ عبدالرحمن النغمة و«المشية»، فإذا عاد إلى البيت،

وجلس إلى صحن الطعام، أخذ يطرق على حافته بنغمة موسيقى الجند: «دم دم درم دم»، فتقول أمه: إن القرع بهذه الطريقة، يا بُني، ينزع البركة من الأكل، ولكن لا حياة لمن تنادي.

ومجيؤه ـ رحمه الله ـ للأكل مشكلة كبرى، فالمفروض أن يأتي قبل المغرب بوقت كاف ليتناول عشاءه، ولكنه بعد أن يدخل الجند الثكنة يتأخر عن العودة، فتطلب عمتي مني أن أذهب وأبحث عنه، قبل أن يخيّم الليل، فأذهب إلى الأماكن التي أتحرى أن أجده فيها، فإذا رآني راغ مني وهرب، ثم يتجه للبيت، ولكنه عندما يقترب من البيت، زيادة في المشاغبة، لا يدخل، وإنما يدور حول «البازان» هناك، وكنا نسكن

خلف برحة المولد، فأحاول أن أمسك به، فيروغ، ثم يصعد على سطح الخزان، فابتعد عنه خوفاً من أن يقفز فيتحطم، فأتركه، فإذا رأى أن اللعبة انتهت، وأنه لابد من دخول البيت، فإنه يدخل، ويفاخرني زيادة في إغاظتي أنه غلبني فلم استطع أن أمسك به، فأخرج من الغرفة خوفاً من أن يراني وقد غلبني الضحك.

ولكن عبدالرحمن ـ أسكنه الله فسيح جناته ـ بعد أن كبر تغير تغيراً كاملاً مثل أخويه تماماً، أصبح هادئاً، قليل الكلام، سمح الوجه، طلقه، له ابتسامة محببة لا تُنسى، وفي كل عام يزيد طيبة و «حبابة»، ولما بلغ مبلغ الرجال نذر نفسه لصلة الرحم، وخدمة الأقارب، ولقد افتقدناه جميعاً

بعد أن توفي في حادث، وله ـ رحمه الله ـ ولدان وابنتان ـ وفقهم الله، وأخذ بيدهم ويد والدتهم، وله حفيد من ابنته والدها خال أولادي.

ولعله من المناسب أن أذكر عن عبدالرحمن حادثة طريفة حدثت له وهو صغير لا يزيد عمره عن ثلاث سنوات، وكنا في عنيزة، لقد أحضر «طاسة» ماء حلو، وأخذ يصب منها في جحر «قعوسة»، وهي حشرة تشبه النمل إلا أنها سوداء، وذيلها دائماً مرفوع إلى أعلى، وصادف أن عمي إبراهيم مرّ، من خلفه، ورأى ما يفعله من تبذيره الماء الحلو، ففاجأه من خلفه بقوله:

ماذا تفعل ياها الصتيمة؟

فرفع رأسه إلى عمي، وقال، ظنا أن ما قاله

شتيمة نابية:

عاد اثتغفر، أي استغفر الله.

فغلب الضحك عمي، وانسحب دون أن ينبس ببنت شفة، لقد رخص في عينه الماء الحلو أمام موعظة عبدالرحمن له!.

وكنت حاضراً هذا الموقف لأني كنت قادماً مع عمي من السوق؛ وأذكر بيت «القعوسة» كأنه أمامي بجانب حوش «التمم».

وقبل أن أترك الحديث عن هذه الأسرة الكريمة أسجل بعض ما لم يرد من قبل، وأول ذلك أن عمتي فيما بعد انتقلت إلى مدينة الرياض، بعد أن استقر ابنها صالح فيها، واطمأن في عمله وتزوج، وكان عبدالرحمن معها تحت رعايتها

ورعاية أخيه صالح الذي كان له بمثابة الوالد حقاً، وجعله يتدارك ما فاته من دراسة، وكانت ـ رحمها الله ـ كما سبق أن قلت، متعلمة، ولها خط جميل، وكان لها قاعدة خاصة في الكتابة، فقد كانت تضع على كل ألف همزة.

وثاني موقف هو موقف أخجلني من عمتي في إحدى المرات؛ كما أخجلني من نفسي خجلاً عظيماً، فقد رأتني دون أن أعرفها، لأن عباءتها كانت تغطي وجهها، أغيظ ابن عمي، وأخي صالح الإبراهيم عن طريق المزح، ولكنه المزاح الثقيل الذي أصبح مؤذياً، فقالت لي بعد أن عادت إلى البيت، ودون علم صالح حتى لا ينتصر عليَّ:

«أرفق بصالح، لئلا يسلّط الله عليك ولد الصانع، يِشّي عليك كلبه» أي يُسلّط كلبه.

فرنَّت هذه الكلمة في أذني، وجعلت الدم يطفح في رأسي، واحمرّ وجهي خجلاً، وكنت في الحالتين أظن أنه لا أحد يدري بأذيّتي لأخي صالح، ولا بكلب محمد الصانع، ويهون عليّ أمر صالح، لأن الخزي فيه ليس فيه من جانبي مظهر جُبن أو خوف، وتبين - حسب ما فهمت منها - أنها كانت تغسل الملابس في «حابوط» «السكيتية» حيث نخرج من المدرسة ونذهب لنطلي ألواحنا؛ وكان محمد اليحيا الصانع يكبرني كثيراً، وكان زميلاً لي عند ضعيف الله، ويسكن في طريقنا للسكيتية، وله كلب قد «رباه» في صفة مهجورة، متصلة

بالمزرعة نفسها، وقد لاحظ خوفي من الكلب، فشجعه هذا على تخويفي منه مازحاً، وقد لاحظتُ إن إحدى السيدات هناك قد انبرت له وانتهرته وانّبته وهددته وأمطرته بوابل من اللوم والتهديد، مما جعله يتراجع حالاً، ويكف عن أذيّتي. لم يدر بخلدي حينئذ أن تلك السيدة هي عمتي مضاوي ـ رحمها الله ـ وقد دعوت لها في ذلك اليوم دون أن أعرف من هي، بسبب المعروف الذي أسدته لي، وهكذا وفقها الله لمنع أذى الكبير عن الصغير للمرة الثانية.

وكانت تحب ـ رحمها الله ـ أن ترى «طاقيتي» (كوفيتي) منكّسة إلى الأمام، بحيث تغطي جزءًا من جبهتي، فكلما رأتني قد أبعدتها إلى الخلف،

قدمتها إلى الأمام، ولم أدرك أن هذا الوضع هو «الأنزك» في عُرف الناس إلا بعد أن كبرت.

وأكاد اليوم لا ألبس الطاقية، وأقرّبها من جبهتي إلا تذكرتها - أسكنها الله فسيح جناته، فقد كانت ابتسامة مشرقة في حياة من حولها، ومرت في هذه الدنيا مر الكرام، لم تثقل على أحد.

جدّي سليمان:

كان جدّي سليمان الإبراهيم القاضي، والد والدتي، كبيراً في السن عندما عرفته، ولا أعرف عنه كثيراً، ولا أعرف عن مهنته قبل أن يكبر ويتحمل عنه عناء المعيشة ابن أخيه، زوج ابنته، والدي من الرضاع: عبدالله المحمد القاضي، وكانوا لرقة حالهم يسمون «القويضي»، ويسكنون «الضبط»،

ضاحية من ضواحي عنيزة، على طرفها، تحيط بها المزارع، ويمكن لذلك أن تسمى منطقة زراعية، بيوتها متواضعة، ذات طابق واحد، ولكنها لا تخلو من اتساع، وللضبط جاذبية بالنسبة لنا أهل الديرة، «لشراحته» (اتساعه) ولنظافة شوارعه، وبساطة أهله وطيبهم، وبسبب ما يبدونه من شوق لأقربائهم القادمين من داخل عنيزة، ومن تقدير، وحرارة استقبال، ولهفة للبقاء معهم، ومحاولة التمسك بهم، وإطالة مكثهم عندهم.

ولم يكونوا يبدون أي ملل من البقاء، وإن طالت المدة، وكنا نبقى عندهم أحياناً أكثر من أربعين يوماً، عندما تلد الوالدة، وإذا كانت فرحة أهلنا بالمولود أو المولودة ففرحتنا نحن الصغار

هي بالبقاء بالضبط، نلعب ونلهو بحرية تامة، وانطلاق كامل، لتسامح من حولنا تجاهنا وتجاه لعبنا، وليس هذا وحده ما يفرحنا، بل كل شيء كان يمر بنا في يومنا هو مبهج.

هذا مع أن بقاءنا عند أخوالنا مكلف لهم، فهم قد يكتفون ببعض أنواع الطعام، ولكنهم بالنسبة لنا يكلفون أنفسهم فوق طاقتها، وأكلهم فيه لذة لما يوضع فيه من خضروات طازجة، وزهر القرع، وزهر الجبا الذي نحبه ويعطي طعماً متميزاً للأكل، وكانوا يأتون به من المزارع التي يعملون فيها، ويأخذونه بدون مقابل، لأن بينهم وبين من يعملون عندهم تسامح في العطاء والأخذ.

في بيت أهلي الخويطر الرجال يأكلون وحدهم، والنساء وحدهن، والصغار وحدهم، أما في بيت أهلنا القواضَى، فنحن الصغار مع النساء نأكل من إناء واحد، ونُبَرُّ باللحمة، والبيدجان، يرمى من الكبار في «حوائفنا» ليغرينا بالأكل.

ومن المناسب هنا أن أذكر شيئاً مما أتذكره عن معيشة أخوالي صيفاً وشتاءً، ففي الصيف يعمل من يعمل منهم في المزارع المحيطة بهم، وأحياناً «يُبَطِّخُون» أي يزرعون خضرة الصيف، وطريقتهم في هذا أن يستأجروا مزرعة براحاً مُراحة، فيها بئر، ويستدينون ليشتروا ما يلزم زراعة الموسم من حيوان وبذر، وعدة للسواني وسيلة استخراج الماء، ثم يزرعون خضروات

الصيف المعروفة في عنيزة، وبعض الفواكه الموسمية مثل (الجرو) الشمام، (والجح) الحبحب، (والجبا) الكوسة الصغيرة، والقرع (الدبا). ثم إذا آن أوان جني الثمرة جنوها تدريجاً، وأنزلوها للسوق تباعاً، أو باعوا المحصول دفعة واحدة، ومن ثمن ما يبيعون يسددون الدَّين.

وأذكر أنهم لسنتين متتاليتين، استأجروا أرضين، إحداهما اسمها «خُبَيْقة» والأخرى «غَبْنَة»، وفهمت أنهما لا تزالان موجودتين، وكنا نعد ذهابنا إليهم في تلك المزارع من أسعد أوقاتنا، لأننا ننطلق على سجيتنا، ونزاول ما نستطيع مزاولته من عمل الكبار «سَنْياً» في «المنحاة»، وقطف الثمر، وجني الخضار، والجري خلف الدجاج في هذه الأرض الفسيحة،

نستمتع بالهواء النقي، ونستظل بشجر الأثل الذي يحيط بهذه المزارع، ولمرور النسيم بأغصان الأثل حفيف موسيقي يلمس الروح، ويبهج النفس، ونرى الطيور، ونسمع تغريدها، ونرى الصيادين، وقد جاؤا بحذر ليصطادوها، فنتبعهم من بعيد، حتى يطلقوا النار على طير مغرّد غافل، فيسقط ونجري نأخذه، ونعطيه الصياد، فيكافؤنا بإعطائنا رأسه ورجليه، هذا طير أخضر جميل اسمه «الخاضور» وهذا أصفر اسمه «الصفارا».

ونفرح بالرأس والأرجل، ونشد على جانب الرأس الخلفي بطريقة متقنة تجعله يفتح منقاره، أما الرِّجل فنشد عصبها فتنقبض، ونتركها فتنفرد، ولا نترك الرأس إلا بعد أن تحميه رائحته

الكريهة بعد يومين، وأشعر بأسى الآن على صيد هذه الطيور الجميلة المهاجرة، لأنها صغيرة، ليس فيها لحم يشبع، ولكنها رياضة الصيد، والمتعة التي يجدها الصياد عندما يرى الضحية تسقط على الأرض لبراعته في التصويب، أما الجمَال والرحمة فأمور تختفي خلف الاعتزاز والفخر، ولا حرج مادام الشرع يجيز، ولكني كنت سوف أكون أكثر سعادة لو رأيت هذا الطير الجميل على غصنه، أو يدرج على الأرض أو في قفص، وأحمد الله أنني لم أذبح طيراً أو حيواناً، بل إني ابتعد عن رؤية ذلك بعد أن كبرت، وأعجب كيف كنت أشهد ذبح الضحايا، وأمسك أطرافها وقت السلخ.

وأود أن أؤكد أن هذا التبطيخ عمل شاق،

والفائده منه محدودة، ولكن القوم قنوعون، ويكفيهم القليل، وسأعطي صورة واحدة لهذه المشقة في السّواني، ومتح الماء، فمثلاً غبنة بئرها عميقة، وهذا يعني أن العمل فيها يقتضي جهداً على الإنسان والحيوان، ويقال إن مزرعة المغيدر عميقة، ولكن يبدو أن غبنة أعمق، بدليل قول الشاعر يصف عمقها:

غبنه غبنك البين ما أطول سريحك

يا اللي سريحك للمغيدر سريحين

ومما أذكره عن هذه المزرعة رجل يدعونه «أبو ذعار» ولا أعرف اسمه الحقيقي، وكان يأتي بين آن وآخر، ولعله يجلب لأخوالي بعض المؤونة، أو يسوّق بعض انتاج المزرعة، وقبل أن يقترب من

المزرعة يسبقه صوته العالي المنتظم، صوت لا يخلو من نغمة مضحكة أقرب لصوت حيوان، دون كلمات. يبدأ من بعيد، على فترات متقطعة، وقد يكون بهذا يود أن ينبه النساء حتى يدنين عليهن من جلابيبهن ما يسترهن، وهن في العادة غير متزمتات، ويقابلنه، ويأخذن منه ما معه، ويعطينه ما جاء من أجله، ولا يمكث كثيراً، وعدد المرات التي رأيته يزور فيها المزرعة قليل، وقد يكون مجيؤه في نهاية الموسم أكثر من مجيئه في أوله.

ومما أذكر فيما أذكر عن غبنة أن أهلي القواضَى، أعطوني مرة دجاجة سوداء سميناها «غرابة» لسوادها، وكانت وحشيّة، لا تقترب من أحد حتى لو لوّح لها بقمح، إذ أنها لم تتعود، مثل

دجاج البيوت، على اقتراب الناس منها، ولم تتعود على الأحواش محدودة المساحة، مسوّرة الجوانب، وهي التي جاءت من مزرعة واسعة، ولهذا، عندما أحضرتها لبيتنا في حي «الهفوف» لم تكن تستقر على الأرض، كان أكثر وقتها على أعلى الجدار، وكنت أخشى عليها من القط، أو أن تنزل على بيت الجيران فتضل طريقها، ولكنها قليلاً قليلاً بدأت تنزل إلى الأرض، وتألف الدجاج الأخريات، وكان الديك يوليها عناية واهتماماً، ويميل إليها منذ أن جاءت، وحاول أن يطوعها، فأبت وحشيتها عليه في أول الأمر، ثم بدأ يسلك طريق المهادنة والملاطفة، ويبرها ببعض حبات القمح إذا وجدها، ويؤثرها على زوجاته الأخريات مما يثير غيرتهن، ولكن ليس

في يدهن حيلة، وليس أمامهن إلا الاستسلام، خاصة وأنهن يذكرن أن كل واحدة منهن مرت بهذا الدور من العطف والحنان، وآن الأوان أن يتنازلن مكرهات عنه لهذه الزوجة الجديدة المتمنعة، المتدللة، الجافلة، النافرة، الصغيرة، السليمة البنية!.

ومرت الأيام، وتمدنت المتوحشة، وخالطت الأخريات، وتقربت من الديك، ولعل حاسة الأنوثة عندها أشعرتها أنها إذا أطالت أمر الدلال والنفرة ملّ الديك منها وتركها، أو زاد قسوة عليها، وهذه الدجاجة هي التي أمدتني في نهاية الأمر بالبيض، الذي وضعته للتفريخ، ولعل نشأتها في الهواء الطلق، والغذاء الطبعي، الذي كانت تتغذى به، ساعدا على أن تكون مكثرة في

بيضها، وبيضها قلّ أن «يمرج» (يفسد).

أما عن حياة أهلي (القواضَى) في الشتاء فقد كانوا مثل غيرهم من أمثالهم، يذهبون إلى البر وقت الربيع، وتوافر العشب فيه، يجنونه، مثل «الرِّبلة»، وهي نبت جيد علف للحيوان، وكان هذا يأتي رافداً لما يكسبه ابن عم والدتي، زوج خالتي، والدي من الرضاع، وهو «القيّم» على البيت، وجدي عمه، ووالد زوجته، وكان ابنه محمد صغيراً، فلما أصبح في سن يمكّنه من السفر سافر، وعمل «خويا» عند ابن سليمان بمكة.

كان لجدي سليمان ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ ابن أخ اسمه «علي»، لا أعرفه، وسمعت من الوالدة أنه سافر إلى الأحساء، وكان جدي يرعى «علياً»،

وعليّ شاب يحب المزارع، و «القلبان»، والسباحة فيها، فصار عنده خبرة. وكان عند نزوله إلى الآبار يرى أن العصافير تفرخ في «المشاقيص»، وهي «الشقوق» التي في جدران البئر، بين طيّات الحصى، وهي تساعد النازل إلى قاع البئر، أو الصاعد منها، وقليلاً ما تستعمل، تعمد العصافير فتأوي إليها ليلاً، وتفرخ فيها كذلك وقت التفريخ، وكانت صيداً ثميناً وسهلاً «لعلي»، يربط حزاماً في وسطه، وينزل ليلاً، ويأخذ ما في الثقب من عش وبيض وطائر، ويدخل كل هذا من فتحة صدر ثوبه، ليستقر في الحوصلة التي هيأها بهذا الحزام، فإذا جمع من هذه العصافير ما يشبع طمعه عاد بحصيلته إلى البيت، وعمد إلى قدر سعته مناسبة، فكفاه على الأرض، وأدخل العصافير وأعشاشها تحته. ويتم

هذا كله في ظلام الليل، وينوي، كالمعتاد، أن يأتي في الصباح، ويدخل يده في حذر حتى لا يفلت من العصافير شيء، فيأخذها واحداً واحداً، ويذبحها ويشويها ويأكلها.

وكان جدّي كثيراً ما ينصحه بالإقلاع عن هذه العادة السيئة، ويخوّفه من عقوبة الله له في صيد هذه الطيور المسكينة، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولكن هذه النصيحة لم تُسمع، وكانت تدخل من أذن وتخرج من الأخرى، وكان يقول له: قد تكون عقوبة الله لك على هذا أن تَزِلَّ قدمك فتهوي في البئر، ويكون في ذلك منيتَك. ولكن من في هذه السن تطربه عادةً المجازفة، وفيها لذّة تغطي على كل المخاطر.

وفي إحدى الليالي ذهب، كالمعتاد، إلى البئر، وجمع صيده، وعاد به إلى البيت، ووضعه تحت القدر، وتم هذا كله بنجاح، وفي الصباح جاء ليبدأ الخطوة الثانية، وليأخذ الصيد، فأدخل يده محاذراً، وحريصاً ألا يجد العصفور فجوة يمرق منها، ودارت يده، فلم يجد شيئاً، ولمس شيئاً غريباً، ونظر بحذر، فرأى حيّة، تبين أنها قد أكلت العصافير كلها، وكانت وليمة مواتية لها، لذيذة مشبعة، تمتعت بها طوال الليل، وعصافيره قد لا تكون أكثر من خمسة، فلما رأى ما رأى سحب يده بسرعة فائقة، وأصيب برعب وذعر شديدين، أعجزاه عن أن يكشف عما وجده، فأخذ يؤشر لأهله بعصبية عما وجده، ولم يفهم أحد منه شيئاً مما كان يرمي إليه، إلى أن هدأ

روعه، واستطاع تدريجاً، وبكلمات متقطعة، أن يبين قصده، فقال له جدّي:

هذه، يا عليّ، عقوبة الله، التي حذرتك منها! جاءت هذه المرة بهذه الصفة، لتنبهك عملاً بما نصحتك به قولاً.

أقلع عليّ بعد هذه الحادثة عن تلك العادة الخطرة، وكفى الله المؤمنين القتال، وسلمت العصافير، وتنعمت الحيّات، فهذا رزقها، وقد هداها الله إليه، وهي تعرف طريقها إليه، ولم يرد الله أن يشاركها فيه أحد، وهي عادة تنزل، وتدخل على هذه الأعشاش، وتأكل ما فيها من بيض وعصفور، وجاء «علي» وكنسها مع ما كنس من عش وبيض وطير، وأصبح الصائد مصيداً،

والعش في الليل، خلاف النهار، لا يظهر المستكنّ فيه، لأن «عليّاً» «يَسْلِتُهُ» (يكنسه) رأساً من الثقب إلى فتحة ثوبه عند الصدر، دون النظر إليه.

ومن القصص التي سمعتها عن «عليّ» أنه كان يظهر شجاعة لا تناسب سنّه، ومن حوله يعرفون أنه ليس شجاعاً، ولكن يظهرون له أنهم يصدّقونه.

وفي سنة من السنوات خرجوا، كما اعتادوا كل عام وقت الربيع، ونصبوا خيامهم في البر، وحرص جدّي أن يكون لعلي بعيره، والإبل مهمّة للانتقال عليها، ولإيصال العشب الذي جمعوه إلى البلدة، وغالباً ما يكون «ربلة»، وهي من خيرة الأعشاب للحيوان، رطبة ويابسة.

في إحدى الليالي افتقد عليّ بعيره، فذهب يبحث عنه في الليل، وهم يعرفون جيداً أن علياً لن يذهب بعيداً، ولكنه سوف يدّعي أنه بحث عنه في كل مكان، وأنه جال خلال «الشعبان» القريبة والبعيدة، فلم يجد له أثراً، وهم يرونه لم يذهب بعيداً خوفاً من الذئاب، أو الحنشل، فلما عاد، وادّعى ما ادّعى، قالوا له: إنه خلف الخيمة، بارك منذ العصر.

ولو كنت مكانه لأكملت الادعاء بأن قلت: إني خرجت من الجهة التي لم يكن البعير باركاً فيها، وسرت في اتجاه آخر، وعدت من حيث ذهبت، ولهذا لم أر البعير، ـ رحمهم الله جميعاً ـ فكلهم الآن تحت الثرى، هم وأولادهم.

وحج جدي سليمان في سنة من السنوات، ولا أدري هل رحلته للحج له هو، أو عن أحد من أهله المتوفين، أو عن أحد بمقابل، كما هو المعتاد من القادر للمحتاج، كما كان يفعل مطوعنا «ضعيف الله» كل عام.

ويبدو أن جدي سليمان خرج من البلدة بعد أن رحلت القافلة، فذهب في أثرها، وكان الوقت بارداً، فلما أظلم عليه الليل نام، وكان غطاؤه «مُضَرَّباً» (لحافاً)، وبعد أن دخل في النوم بعمق أحس بضربة سوط على المضّرب، ففزع ومعه سلاحه، ونظر يميناً ويساراً، ظنّاً أن هناك قاطع طريق «حنشولي»، ينتظر رفعه رأسه من فوق يد البعير، التي يتخذها المسافر عادة وسادة

له، فيهرب بالبعير، دار جدي حول الناقة، فلم ير شيئاً، وعاد لينام متيقناً أنه واهم فيما أحس به، أو أنه حلم، فلما حاول أن يدني «المضرّب» منه، ليتدثر به، أحس أنه ثقيل، فلما نظر وجد حيّة قد انشبت أنيابها فيه، فقتلها، ولعلها، وهو نائم، لجأت إلى دفء المضرب، ودفء الرجل الذي تحته، فانقلب جدّي في نومه من جنب إلى جنب، فضغط عليها، فعضّت «المضرب»، وأفرغت فيه سمها، وقلبت جسمها، وهذه الحركة هي الضربة التي أحس بها جدي، وتقول الوالدة إن دائرة السم في «المضرّب» بقيت واضحة لمن يراها.

والدي رضاعاً، عبدالله:

كان ابن أخ جدّي سليمان وزوج ابنته، ووالدي رضاعا عبدالله المحمد القاضي رجلاً كادحاً، يعتمد عليه البيت، وكان حنوناً عطوفاً، يفرح بمجيئنا، وأذكر أنه في إحدى زياراتنا، وكان الوقت ربيعاً، والبلاد مخصبة، اصطحبنا في رحلة ممتعة إلى البر، ولا أذكر الآن من أي جهة خرجنا من «الضبط»، ولا أي طريق سلكنا، ولكني أذكر أننا خرجنا في الصباح الباكر، ولا أظن أننا اهتممنا بالفِطار فأمامنا «العَنْصَلان» بصل البر البارد اللذيذ، والبسْباس، وهو عُشب نحبه، والبَرُّ مليء بهذين وبالغدران بعد الأمطار، ومثل هذا الجو يجذب الشباب إلى البر، يذهبون إلى إحدى الرياض المزهرة، يقضون

فيها يوماً أو أكثر، ينعمون بخيرات الله، ويقطفون من بين نبتها ما يحلو لهم ريحه، أو طعمه مثل: «البسباس» وهو عشب يشبه البقدونس، مع لذعة حرارة خفيفة لذيذة، و «الحوّا» و «البقّيقر» و «البقرا»[1]، ويرجح على هذا «العنصلا» أو «العنصلان» كما كان يسمى أحياناً.

وصلنا إلى الروضة التي اختار والدي أن نسوح فيها، نمرح ونلعب ونقطف من الزهور والنبت ما نشاء، وأذكر أني قلبت حجراً فوجدت تحته مجموعة من حشرات تتحرك، في حجم الدبابيس، تميل إلى الصفرة والخضرة، فحملتها، جملة، في يدي، وذهبت بها إلى والدي، وشعرت بحكة شديدة بيدي، فنقلت ما باليد اليمنى إلى

(١) البقيقر بعنيزة، والبقراء بالرياض.

اليسرى، فبدأت تلتهب، فأعدتها للسابقة، وهكذا دواليك، أنقلها من يدٍ إلى يد، حتى وصلت إلى طرف الروضة حيث يجلس والدي، كنت فرحاً بما اكتشفت، فنظر إلى الحشرات، وأمرني أن ألقيها على الأرض، ففعلت، ففركها بحذائه، وقال:

يا ابني هذه عقارب صغيرة، وهذه الحكّة، والإحمرار في يدك من أثر سمّها: «عسى الدبا ما يلحق أمهاته»، يدعو عليها ألا تكبر.

ثم ذهبت أتابع الفرجة، والاستكشاف مع زملائي من أقاربي، فرأيت ما يشبه الوزغ، ورقبته خضراء، فخاتلته، حتى أطبقت على عنقه، وذهبت جرياً، أُري أبي صيدي، ولدهشتي رأيت على وجهه اهتماماً مشوباً بالفزع، مما لم أستطع

فهمه، ثم أمرني أن أمسك به جيداً، ولا أطلقه، وأن أضعه على الأرض وأنا ممسك به، ومثبت له، ففعلت ما أمرني به، مندهشاً من هذا الاهتمام، ومنتظراً، بتطلع، إلى الخطوة التالية، لتكشف لي ما هو حتى الآن غامض، فوضع ـ رحمه الله ـ حدّ «المخلب» (سكين مشرشرة) على رقبته، وقص رأسه، وتنفس الصعداء، لدهشتي ودهشة الصغار الذين معي، ولكن دهشتنا زالت عندما أخبرنا أن هذا «بريصي»، وليس وزغة برّية، بريئة من الأذى، والبريصي حسب ما نسمع أنه سام، وشائع بين الناس أنه هو الذي يغذّي الحيّات بالسم!!.

ثم جمعنا ـ رحمه الله ـ بعد هذا، لنعود إلى الضبط، خوفاً من أن نقدم على ما هو أخطر، وما هو أخطر

هو الحيّات، فأنا لا أذكر، حتى ذلك الوقت، أني سبق أن رأيت حيّة، وإن كنت قد سمعت بها، ولو صادفت حيه لأمسكت بها، لأني كنت صغيراً، في حدود سن السابعة، ولا أنسى كلمة والدي بنصها عندما عزم على إنهاء الرحلة، فقد قال:

«شيء هذا أوله ينعاف تاليه».

أي يُكره آخره.

أخي صالح العبدالعزيز:

هو أخي من الرضاع وابن خالتي صالح العبدالعزيز العضيبي، من أقرب الناس إلى نفسي، فهو زميل طفولة، ولم يكن بيننا فرق بالسن، وكنت أفرح بالمجيء للضبط لأسباب متعددة منها أني سوف ألتقي به، وألعب معه وأستريح في هذا

اللعب، مع أن وقته الذي يسمح له باللعب قليل، فهو يقوم ببعض الأعمال التي تتناسب مع سنّه، فهو يرسل ليحضر شيئاً، أو يوصل شيئاً إلى آخرين، وكنت أسعد بالذهاب معه، وكان ذهابنا إلى إحدى المزارع لإحضار بعض الخضروات، أو للبيوت لشراء «شكر» (سكر) أو ورق (شاي)، فالضبط ليس فيه دكاكين، ولكن معروف لساكنيه أن فلاناً أو فلانة يبيعون، بالدَّيْن، الشيء الفلاني.

وأخي صالح هذا يتيم، وله أخت تكبره، وقد تزوجت والدته (خالتي) بعد وفاة والده، وكنت أُدِلُّ على أخي صالح كثيراً، و «أمون» عليه أكثر مما يجب، ولعل شعورنا معاً بأني ضيف يجعلني

أضغط، وهو يستجيب متسامحاً عن حقه، متلذذاً بالاستجابة لطلبي، ومن أبرز ما كنت أثقل عليه به: «الكعابة» جمع «كعب» وهو مفصل في قدم الخروف، ومثلها أخرى صغيرة ليست ذات أهمية، إلا أنها أحياناً تقبل مرجِّحة في صفقات «الكعابة»، واسمها عجنجل، وهو اسم دلع، لأن غالب من يستعملها البنات، يجعلنها صفوفاً، وكأنها أبقار منتقاة مقتناة، يفاخرن برصها وتنظيمها، ويعتززن بعددها ونظافتها.

وكان أخي صالح - حفظه الله - يعطيني العدد الذي أطلبه، لأنه لم يكن لديه الوقت الكافي للعب بها، ولا يجد أيضاً من يلاعبه، وسوف أشرح ما تنتهي إليه هذه المجموعة، وسنرى أن كل قوي

هناك من هو أقوى منه، والذي هو أقوى مني ابن عمتي صالح الحمد القرعاوي، وهذه هي قصتي معه ـ حفظه الله وأبقاه ـ، وأدام عليه ثوب الصحة والعافية.

صالح الحمد والكعابة:

موسم جمع «الكعابة» هو عيد الأضحى، وما عندي منها مصدره ـ كما ذكرت ـ صالح العبدالعزيز العضيبي، ابن خالتي وأخي من الرضاع، فإذا عدت بها إلى بيت أهلي الخويطر؛ سلّط الله عليَّ وعليها ابن عمتي صالح الحمد القرعاوي، وصالح أكبر مني قليلاً، وسنّه تسمح له بالاختلاط بشباب أكبر مني ومنه، ومن هؤلاء خُبراء في لعب الكعابة، وفي ترصيصها،

والترصيص يأتي من حفر بطن الكعب، وصب رصاص فيه، حتى يثقل وزنه، وهذا ينقله من مرتبة «الطزقا» إلى مرتبة «الصول» مع أنه في العادة يختار من بين أكبر «الطزق».

و«الصول» بهذه الحالة إذا ضرب به مجموعة «كعابة» مرصوصة في حدود دائرة معينة، فإنه يخرج مجموعة كبيرة من الدائرة، وفي كل ضربة معادة تخرج مجموعة أخرى أو فرد، وينتهي دور اللاعب إذا انتهى ما بداخل الدائرة، أو أخفق في إحدى المرات من إخراج شيء، وهذه اللعبة لها نظام متقن، لا في صفّ الكعابة، أو في خط الدائرة، أو في وقفة اللاعب، عند البدء، أو فيما يضاف بعد ذلك مما يجعل الأمر عسيراً على اللاعب.

وعندما يرى صالح عدد الكعابة معي، ويرى أنواعها، يبدأ ينصب شباكه للاستيلاء على أكبر عدد منها، وأحسن نوع فيها، والحجج لهذا كثيرة ومتنوعة، وكلها تكاد تنحصر في مدح «صول» مرصص عنده، يدعي أن فلاناً قد لعب به ضد فلان، وأنه كسب به كل الجولات، وغلب كل من لعب معه، ومن جملتهم فلان، المشهود له بالمهارة، ويأتي بأسماء رنانة، ويحلف، حانثاً، أنه اشتراه منه بمئة وخمسين «طزقَا».

فإذا يئس من إقناعي، ورأى أن حججه لم تُقبل، وقد استنفد منها كل ما يمكن أن يدلي به، واستوعب أسماء جميع «الجذعان» المشهورين بعنيزة من أبناء السليم والسناني والنعيم، ومن

إليهم، لجأ إلى التبكيت، فيقول إني لا أفهم في الكعابة، ولست «كفؤاً» أن أقتنيها، ولا أستحق أن يُتحدث معي عن هذه الأمور، فأنا رضيع، وابن أمي، لا ابن أبي، ويقول هذا مدلّلاً على أني لم أدخل مثله مرحلة الرجولة، وأنه من الأفضل لي أن أرجع إلى عمر الرضاعة، فإذا لم يُجْدِ هذا كله شيئاً انطلقت يده اليُمنى في الهواء لتهوي بسرعة وقوة على وجهي، مفرغاً في هذا كل الحنق الذي اختزنه من جراء عدم تأثير كلامه عليّ، ومع هذا فهذه الصفعة لا تقنعني في أن أتخلى عن ثروتي مقابل «صول» كسب مكاسب خيالية وهميّة، فذكّرته ـ حفظه الله ـ قبل أيام بهذه الوقائع، وذكّرني أني سرعان ما انتقمت منه، وهذا صحيح، فالضعيف لا يُعدم عون الله.

إلحق الضّوّ :

كنا في رمضان، وكان أهلنا قد ذهبوا لصلاة «القيام» (التهجد)، وكان الوقت شتاءً، وأنا وصالح وحدنا حول النار، أمام «المنقلة»، في صفة الرّحى، نتدفأ على المدفأة «المنقلة»، (سُميت بذلك لأنها مدفأة تنقل وليست ثابتة)، وكنا نوالي وضع الحطب حتى لا تخبو النار، وصادف أن صالحاً غلبه النعاس،وأثناء غفوته هذه قلبت خشبة أكلت النار نصفها، وأبعدت نصفها الثاني عن النار مما أحدث دخاناً، فصار الجزء الذي لم يحترق بعد فوق الجمر، والمجمّر السابق خارج النار، تجاه صالح، فرمّد أعلاه، وغطى منظر الجمر، فقلت لصالح، بعد أن أيقظته من نعاسه:

إلْحِقِ الضَّوّ، يا صالح..

أي قرب طرف الخشبة اليابس الذي هو في جهتك من النار، فأسرع وهو شبه مغمض العينين، ومسك الخشبة المرمدة، التي هي في الحقيقة جمرة، فصرخ من الألم، وقفز، ولم يستطع أن يضربني، لأن يده، أداة الضرب، أصبحت معطوبة مؤقتاً، ولكن سيل الشتائم تتالى مدراراً، مثل المطر، وصار غضبه وحنقه يزيد كلما رآني مستغرقاً في الضحك، وكان حقاً ضحكاً هستيرياً يثير أبرد الناس أعصاباً، فيحاول أن يجد شتائم تشفي غليله، ولكن قاموس الشتائم نضب، ولم يغنه شيئاً.

ومما زاد غضبه أني حاولت أن ألقي اللوم عليه بأني لم أرد منه أن «يُلحق» النار بيده، وإنما

«بملقاط» الجمر، الذي أمامه، بجانب المدفأة، وهذه حجة لم يقبلها صالح، ولكن الكبار، عند التحقيق، قبلوها، اعتمادًا على أن صالحاً هو دائماً صاحب اليد العليا وأني أنا المسكين المضطهد.

حدث هذا وأنا في العاشرة وهو في الثانية عشرة تقريباً، وصالح لن يرى هذه القصة إلا مطبوعة، ويصدق على الأمر حينئذ، «قد قيل ما قيل إن صدقاً وإن كذباً»! غفر الله لنا، فإن سمح صالح فالحمد لله، وإن لم يسمح فالكعابة الآن والحمد لله كثيرة، بعد أن بارت سلعتها، وبدل المئة نعطيه ألفاً وألفاً..!

على كل حال هذه هي ذكرى الكعابة، والحمد لله أني لم أخسر ثروة بفقد الكعابة عندما ينجح

أبو خالد في أخذها طوعاً أو كرهاً، والحمد لله أنه لم يبق في يده حرق من تلك الحادثة، بل بقيت يده الكريمة تكتب وتدير العمل الرسمي منذ زمن الملك عبدالعزيز في وزارات متعددة، أدام الله الصحة والعافية على الصَّالِحَين: صالح العبدالعزيز العضيبي، وصالح الحمد القرعاوي، وقد قدمت صالح العبدالعزيز هنا لكرمه معي في إعطائي بسماحة ما في حوزته من ثروة الكعابة، وأخّرت صالح الحمد لأنه يكفيه تغلبه عليَّ فيما كسبه مني في تلك الأيام.

هذا جانب من جوانب حياتنا معاً أنا وصالح الحمد، وهناك قصص أخرى فيها إضاءة وإشعاع، تجعل صالحاً صاحب يد كريمة عليَّ، وفيها يأتي إحدى هذه القصص:

صالح الحمد يعبّر لنجدتي :

هذه زاوية من زوايا صلتي بابن عمتي ـ أمد الله في عمره ـ، وأدام عليه الصحة والعافية، وهذه الزاوية من الزوايا التي يرجح فيها ميزان أفضاله عليَّ، وهي مضيئة في حياتي، وسهّل أمر حدوثها منه أنه شجاع، وقوي رغم أنه نحيف القوام، وصالح فيه حميّة لأقربائه، ولا أنسى له معروفاً عليَّ، وهو لا يخلو من تأنيب ضمير من جانبي، [illegible] كنت حينئذ في التاسعة من عمري.

كان هناك ولد، لا أزال أذكر اسمه وصفته، بيتهم على أطراف «الحِيَالة»، في سوق المعثم، وكان يكبرني بسنة، وقد يكون أنهض مني جسماً، وكان يعرف وقت ذهابي للكتّاب، فيقف لي عند

مدخل «السويق» الذي أمر منه، ويسمى سوق المعثم، كما قلت، ومعه عصا، يحركه بقوة يميناً ويساراً، فلا أستطيع المرور، فأخبرت صالحاً بهذا، وتحركت «الحميّة» في نفسه، وكانت قد انتشرت، بين الشباب في تلك الأيام، طريقة معينة، لقذف الحجارة، بحيث يُحدث الحجر عند حذفه صوتاً يسمى «وشيشاً»، مشبهاً صوت الحيّة، ويبقى الصوت مستمراً، طوال مسافة الحذفة، ويختار هذا الحجر بحيث يكون «شِلاَّفة»، مهيأة تماماً.

لما رأى صالح خصمي في المكان المعتاد أخذ يرسل عليه القذائف بأصواتها العالية، فصادف أن ابنة صغيرة لرجل معروف يسكن بجوار المكان، وهذا الرجل هو «محسّن» (القراوعة)،

أهل صالح، خرجت من بيت أهلها، وأطلت من «العاير» (الزاوية) المنحنى الذي عليه بيتهم، فجاءت الضربة على «صابرها» و «ثعور» الدم منها كالمرزاب، وأخذت البُنيَّة تصرخ، فخرج أبوها مسرعاً، ورأى الدم، ورأى صالحاً، ورأى خصمنا، فسارع صالح، واتهم خصمنا بأنه هو من رمى الحجر، وبدأت المشكلة بين والدها وأهل الخصم، ولعل أبا البُنيَّة فرح ألا يكون الفاعل صالحاً، لصلة الحلاقة التي ذكرت! وهكذا لقي خصمي جزاءً شديداً على عمل لم يعمله لقاء جرم فعله في عمل آخر عمله.

وتذكرني هذه القصة بقصة مماثلة في بعض أجزائها ولا دخل لصالح الحمد فيها:

كان هناك شاب أَسَن مني قليلاً، وقد يكون الآن على قيد الحياة، ولهذا لن أذكر اسمه، لئلا أحرجه، ولئلا أعطيه سلاحاً قد يقاضيني به!! هذا الشاب يكبرني بسنة أو سنتين، ولم يكن ملتحقاً بكتَّاب، لأنه يعمل مع والده في دكانه، وقد أحنقه أن يلتحق غيره وهو لا يلتحق، وكان الذين يلتحقون بالكتاتيب في تلك الأيام أقل من الذين لا يلتحقون، لأن كثيراً من الأولاد بمجرد أن يشبّوا عن الطوق يلتحقون بأعمال أهلهم إن كانوا فلاحين، أو صناعاً، أو صاغة، أو تنّاكين (سمكرية)، أو أصحاب دكاكين، كان أولياء الأمور يحرصون على تعليم أبنائهم صنعتهم منذ صغرهم، لأن هذا يضمن حبهم لصنعتهم، وإتقانهم لها، ويبعدهم عن ضياع وقتهم في اللعب،

ومن الناحية النفسية يشعر الأب أن ابنه أصبح على عتبة المسؤولية.

هذا الشاب أحنقه أننا لا نلاعبه، لأنه أكبر منا سنّاً، ولأنه ليس من شارعنا، ولا من كُتَّابنا، ولا ممن يصلي بمسجدنا، وليس لنا أقرباء في حيّه، وعموماً كان من غير المقبولين منا، ودخوله معنا نشاز، ومثار استغراب، لهذا كله كان يريد أن ينتقم، ويحملني على أن أغيّر رأيي وألعب معه، واختارني لأني أصغر مجموعتي، فكان يقف لي مختبئاً في منحنى أحد الأسواق التي أمر بها، وفجأة ينقضّ على لوحي، فيمحو وجهيه، أو أحد الوجهين، واللوح عادة وجه منه يكون فيه «الحفظ» وهو ما سبقت دراسته، وأصبح معداً

للمحو، والوجه الثاني فيه «الخطة»، وهي الآيات الجديدة التي عليَّ أن أحفظها.

وهذه الألواح من خشب تطلى «بالطلو»، وهو «غرين» يربص في الماء، ويعالج به وجه اللوح، ويترك حتى يجف، فيكون قابلاً للكتابة عليه بقلم «عصفر»، وهو غصينات نبات تهيأ مثل أقلام البوص المعروفة.

وفي يوم من الأيام تقابلنا، وكان يفصل بيننا عدد من الإبل[1]، كانت تمشي كل واحدة خلف الأخرى لضيق الطريق، وعندما توازنا، وهي بيننا، لم يصبر، فحبه للأذى أغواه وأعماه عن أن يكون حذراً، وأراد أن يمرق بسرعة من

(١) الجاري على لسان أهل عنيزة بعير وبعارين، وعلى لسان أهل مكة جمل وجمال.

بين يدي واحدة من الإبل ورجليها، وهي حركة يقدم عليها الأولاد عادة برهاناً على سرعتهم وشجاعتهم، وتأكيداً على خفتهم، وحسن تقديرهم، فلم يوفق، لأنه صادف أنه، وهو يمر، رفع البعير رجله، فلما أنزلها نزلت على «صاحبنا» هذا، فتدحرج تحت أقدام البعير، وجفل البعير، و«برطع»، وأخذ يدوسه بأقدامه، وتلاه البعير الذي خلفه، ثم الذي خلفه، وكل منها لا تدري ما جفّل ما أمامها، وقد حكمها الشارع الضيّق، أما أنا فلجأت إلى عتبة أحد الدكاكين، فصرت في مأمن ومنعة، أما هو فأخذ من الدوس والرفس والرجف درساً يكفيه للأبد، فلما فكّ الله عسرته من هذه المعركة، واجتازت الإبل، وأبعدت عن الموقع، كان هو في حال بدنية سيئة، من «الروعة»

والآلام، ونفس مكسورة، محطمة، وموقف معيب لا يحسد عليه، ويستحق الرثاء، وزيادة على هذا فقد أخفق فيما كان عازماً عليه، مما كان ينوي أن يجعله مصدر فخر واعتزاز، بأنه مر من بين أرجل بعير، ومما زاد في ألمه وغيظه أن هذا حدث أمامي، ولابد أن وجهي كان يوحي بالانتصار والغبطة، والتشفّي، وقد أخذ الله حقي منه بطريقة لم أكن أحسب حسابها، أو أحلم بها، ولابد أنه حمل همّاً مع همّه، فهو يعرف جيداً أني سوف أشيع بين مجموعتي وغيرها هذه الفضيحة الكبرى، التي يرقص عليها أبناء سوقنا، ويعايرون بها أبناء سوقه، وهو المبجل عندهم.

كانت هذه الحادثة سبب عتقي - بفضل الله - من أذاه المتكرر، فلم يعد بعدها يعترض طريقي، بل

كان إذا رآني مقبلاً من جهة حاد إلى جهة أخرى، أو عاد من حيث أتى، ولعله فعل هذا لأنه لا يريد أن تلتقي العيون، فتتجدد الشماتة، وإلا فمن المؤكد أنه لم يتركني خوفاً مني، ولعله خوفاً من أن أدعي دعوى جديدة لم تحدث، ولكنها حتماً سوف تصدق، خاصة وأن الأولى زادت وتوسعت، وهي تنتقل من فم إلى فم، إلى أذن، كالمعتاد، ومن مجموعة إلى أخرى، وهو ما يدخل في طبيعة هذه المجتمعات التي تجتر الأخبار، وتزيد فيها وتنقص، وتغيّر وتبدّل.

وفي القصة الآتية شبه من القصتين السابقتين، ومكانها يمكن أن يكون في خانة الحديث عن عمي إبراهيم، ولكن مجيئها هنا للمناسبة،

ولصلتها بالسابقتين، وشبهها بهما.

كان هناك شاب يكبرني قليلاً، ومن أسرة كريمة، بيننا وبينهم صلة رحم، يقف لي قرب بيتهم في سوق الحريم، وهو طريقي إلى المدرسة (الكُتَّاب) ولضيقه يُعد مخنقاً، يتناسب مع أغراض الشريرين، وليس لي طريق قريب غيره، وغيره يأخذ مني وقتاً طويلاً. يقف هذا الشاب، ومعه عصا، وهي طريقة ثابتة للأذى، فإذا اقتربت أخذ يلوّح بالعصا، حتى لا أمر، فأتأخر عن المدرسة، اضطررت أن أخبر عمي إبراهيم - رحمه الله - فاهتم بالأمر، وترصّد له في أحد الأيام، وكان الوقت ظهراً، وقت عودتي للمدرسة، وحصره في سوق «العثيمين»، وهو سوق «سد» (غير نافذ)،

ويقابل سوق الحريم، فأعطاه علقة جمعت الناس على صراخه، وخرج بعضهم من بيته، أما أنا فلم أقف، وتابعت سيري إلى مدرستي، وقد عاتبني عمي فيما بعد على عدم بقائي لأشرح للناس أذى هذا الشاب لي كلما وجد الفرصة لذلك، ولعل مما زاد في حنق عمي على هذا الشاب أنه لم يكن يقف لي كل يوم، مما اضطر عمي أن يأتي معي كل يوم، حتى جاء فأمسكه بالجُرم المشهود، وضربه بالعصا التي كان سيضربني بها لو استطاع ذلك، ولكن قدمي كانتا غالباً تسعفاني على الهرب، وجسمي يساعدني على المراوغة، وقد يصيبني منه ضربة أو ضربتان تقنعه.

والدي عبدالله رحمة الله عليه:

هذه المواقف التي حدثت لي من بعض من تعرّض لي، ليست وقفاً على زمني، وإنما كانت سمة كل زمن، لأن الشباب هو الشباب، وهواياته، وغواياته هي هي، وكما حدث لي في زمني حدث لوالدي في زمنه، ويكاد يكون الدافع واحداً، حب الأذى من الكبير للصغير، وعمل مثل هذا هو من باب الفن للفن!!.

كان والدي في حدود الثامنة أو التاسعة، وتعرض لأذى شخص يكبره في السن دون داع إلا حب الأذى، وقد يكون هناك شيء من الحسد، وقد صبر والدي مرة ومرتين، إلى أن لم يبق في قوس الصبر منزع، وشعر ـ رحمه الله ـ

أنه آن الأوان لإيقاف هذا العبث، وقد أوقف المعتدي فعلاً عند حده، بطريقة لم ينسها الظالم، لأنها كادت أن تودي به، وأجبرته أن يُقلع عن غيِّه، وملخص القصة، كما رويت لي وأنا صغير هي كما يلي:

كان عند جدي بستان فيه نخيل، وينتج بعض الخضروات، ومنها الطماطم، وكان والدي يذهب إلى هناك، وعندما يعود إلى البيت يعود أحياناً ومعه «حبة» طماطم (قوطة) أو حبتين، وتعوّد شاب أكبر منه سنّاً أن يعترض طريقه، ويأخذ القوطة منه، ويعصرها أمامه حتى لا يبقى منها إلا قشرها، فلما تكرر منه ذلك، كما قلت، فكر والدي بطريقة توقف هذا السخف،

ولم يفكر والدي، خلافاً لما فعلته أنا، أن يشكوه إلى أحد، أو يستعين بأحد عليه، وقرر أن يأخذ حقه بيده، وقد اختار خصمه وسيلة الاعتداء الظالم، واختار والدي الرد العادل، فعندما أخذ الشاب حبة القوطة منه في أحد الأيام، وأخذ يعصرها بمتعة وتشف، انقضّ والدي على «مَراقّ اللحم»!! في جسمه، وبسرعة لواهما، وأخذ يعصرهما، كما عصر الشاب الطماطم، وذاك يضرب بكل قوته على كتف الوالد، ولم يُجْدِه هذا الضرب المبرح شيئاً، لأن والدي سلك طريق الشجاعة، والشجاعة عمادها الصبر، وبعد برهة من اللّيّ والعصر أغمي على الخصم، فتركه الوالد، ولا يدري متى أفاق، ولكنه يعلم علم اليقين أن الخصم لم يعد يريه وجهه، أو يقترب

من طريقه، ولا أظن جدّي، لو كان علم بالأمر إلا مسروراً مما عمله ابنه من أخذه حقه مضاعفاً، فجدّي من جيل يقدر الاستماتة في الدفاع ضد المعتدي ودحضه.

وقد أبعد بنا الاستطراد عما بدأناه، ولكني وجدت أن من المناسب أن تأتي هذه الحوادث المتماثلة متتاليةً.

وأعود إلى ما بدأت به الحديث، وهو جدي سليمان الإبراهيم القاضي، واختمه ببعض ما أذكره عنه، والصورة التي في ذهني عنه محفورة ولن تنسى، وهي أني كنت أراه عصراً قاعداً في حوش البيت، في ظل البيت، مستنداً على جداره، وآتي وأجلس في حضنه، أحس بدفء

حنانه وعطفه، وألعب بشعر صدره، فقد كان الجميع في تلك الأيام، ليس في ثيابهم إلا (إزرار) واحد من قطن في أعلى فتحة الثوب، وهذا هو ما أتاح لي هذا العبث البريء، فإذا ما مللت بدأت في مداعبة شعر لحيته، وهو يضمني ويمسد على شعري، ويربت على كتفي، وهذا أمر لم أكن أفكر في عمله مع جدّي علي.

أما زوج جدي سليمان، جدتي نورة فكأني أنظر إليها في مصلاها، في وسط الحوش، وقد حدد بلبنات من الطين، ووضع فيه الرمل، ولعلّي بهذا اختم الحديث عن هذه الأسرة.

والدة أخي محمد:

والدة أخي محمد امرأة طيبة القلب، رقيقة الإحساس، عطوف على الصغار والضعفاء، تخشى الله فيما تأتي وما تدع، لا تعرف الغل ولا الحقد، ولا غرابة في هذا فهي من والدين كريمين، والدها سليمان المحمد المزيد العمرو، فيه هذه الصفات، ووالدتها مثله وسيأتي الحديث عنها.

أخبرتني -رحمها الله- أنها كانت صغيرة عندما تزوجت أبي، وكان الشاهي حديث الدخول إلى البيوت في عنيزة، ولم يكن الشاهي مما تشربه النساء في بيتنا، وكانت هي تشربه في بيت أهلها (المزيد) قبل الزواج، وقد أخذت منها «خرمة» الشاهي مأخذاً لم تستطع أن تصبر عنه، واستمرت

بعد زواجها تذهب إلى كتّاب المطوعة»، تدرس عندها القرآن، فصارت بعد زواجها تتظاهر أنها تذهب ولكنها في الحقيقة تذهب إلى بيت أهلها لتشرب الشاهي عندهم، واكتشف الوالد ذلك، وجابهها بما اعتقد، فأنكرت، فقال لها:

افتحي فمك.

فاضطرت أن تعترف، فحنّ عليها، ورأف بحالها، وأحضر شاياً وسكراً إلى بيتنا، ورتبه للنساء يشربنه كل يوم، ولم يعد هناك داع لأن تشربه أم محمد خفيه، وأصبحت صاحبة فضل في فتح باب شربه في بيت الخويطر.

وقد قصّت عليّ هذه القصّة ـ رحمها الله ـ عدّة مرات، وكانت تكررها، ولعلها تتلذذ بذكراها، ومن هو الذي لا يتلذذ بذكريات الصغر، وآخر

مرة سمعتها ترويها في عام ١٤٠٢هـ، ولم يختلف ما قالته أول مرة عن آخر مرة ـ رحمها الله رحمة الأبرار.

ومن وصفها لتصرفاتها يستدل على أنها ـ رحمها الله ـ كانت لا تزال طفلة، ولم تشعر أنها زوج عليها أن ترعى أمور زوجها بدقة وانتظام، وكانت تشعر أنها صبية تحتاج إلى رعاية، ولا يستغرب فقد كانت في بيت أهلها بين أب حنون، وأم جوهرة بين النساء.

وكانت والدتها امرأة دمثة الخلق، خفيفة الظل، محبوبة، ومرحباً بها من قبل أهل بيتنا، يفرحون بها، عندما تأتي لزيارتهم، يفرح بها الصغار والكبار، ووالدتي تفرح بها، رغم أنها أم

ضرتها، ولا غرو فقد كانت نظرتها لوالدتي مثل نظرتها لابنتها، وقد كنت ابتهج بمجيئها، وأجلس بجانبها أستمع لأحاديثها العذبة، وقصصها المسلية، وطريقتها المشوقة في قصّها، ومن القصص التي سمعتها منها، وشدتني وهي تقصها كما شدت جميع المستمعات، وكانت تقصها في جلسة شاي لا تنسى، في ضحى أحد الأيام، وما أزال أذكر المكان الذي كنا نجلس فيه، في جانب من «مقدمة» البيت، واسمها نورة المحمد السلطان العمرو، والقصة هي:

الطائرة، كما روت، مثل المكان الذي كنا نجلس فيه، ومصنوعة من «صت» (معدن) وبها طيار يُطيّرها ويوقّعها، يُطيّرها متى شاء، ويُوقّعها

متى أراد، وفي إحدى المرات التي طيّرها بها بعد أن «شلعها» (أقلع) بها من الأرض، فلما استوى في السماء اكتشف أن «لولبا» (بُرغيّاً) من مكنتها قد سقط، وهذا الخلل يتلوه كارثة، لأن الطائرة سوف تقع، فبحث عن شيء يسد به هذه الفجوة، فلم يجد شيئاً، فأدخل أصبعه في مكان البرغي، فأخذت تطحنه المكنة حتى قضت عليه، فأدخل أصبعاً ثانياً فطحنته المكنة تدريجاً، وهكذا راح يدخل أصبعاً بعد الآخر، فتأخذ المكنة في طحنه، حتى قضت على الأصابع العشرة، وهو ينزل تدريجاً بالطائرة نحو الأرض، أثناء طحن أصابعه، ومن حسن حظه أنه عند انتهاء طحن آخر إصبع وصلت الطائرة إلى الأرض بسلام.

وهكذا جاء الخيال محلّقاً في أفق الذهن، يسبح مثل طائر حر في فضاء الله، الصورة خضعت كالمعتاد لمقدار علم الناس، لغياب العلم الحق والصورة الصحيحة عنهم، ولا أستطيع أن أصف دهشتي ودهشة الآخرين عند سماع هذه القصة، عند تصور جسم بحجم المكان الذي نجلس فيه، وهو من حديد، يطير في الهواء، وينزل إلى الأرض بتدبير إنسان، ثم توقف حياته وحياة الطائرة على مسمار، وصبر الطيار على فرم أصابعه، يا لأعصابه من أعصاب، ويا لجَلَده من جَلَد!!.

والحمد لله أن الطائرات في تلك الأيام لم تكن وسيلة الركوب، وإلا لجفلنا من ركوبها

من جرّاء هذه الصورة، ونحن لم نركب الطائرة إلا بعد زمن طويل بعد أن بهتت الصورة الأولى التي كانت في ذهننا، وعرفنا الطائرة معرفة صحيحة.

سمعت هذه القصة وعمري في حدود أربع سنين أو خمس، وهذه الحادثة تؤرخ لمعرفتي لأول مرة بالطائرة ودورها، والتأريخ بربط السن بالحادثة هو الأمر السائد في ذلك الزمن، يربط التأريخ بموقعة حرب، أو انتشار مرض، أو سَفر، أو عودة من سفر، فسنة «الصخنة»، وسنة «المليدا»، وسنة «السبلة»، وسنة فتحة كذا إلى آخر هذه الحوادث.

رحم الله، أم المزيد، كما كنا نسميها، ورحم

والدتها فهم سلسلة نبيلة من النساء والرجال، أذكر والدتها امرأة كبيرة السن، خفيفة الروح مرحة، وأذكر أننا زرناهم في أمسية أحد الأيام، ونحن صغار، وكان معنا عبدالله الحمد القرعاوي، وعبدالله، حينئذ في سن الثالثة أو الرابعة من عمره، بمناسبة ولادة طفلة لهم، فقالت جدة أخي محمد، رقيّة الروق، موجهة الكلام لعبدالله:

سوف نحجزها، يا عبدالله، زوجاً لك.

فقال بحماس، وبسرعة:

لا، لا أريدها.

ولا يُلام عبدالله، على هذا الرفض، لأن الرضيعة ما يزال وجهها قطعة لحم لا تفاصيل فيه، مغمضة العينين، ممهودة الجسم، وهو منظر

لا يُغري، وعبدالله، صغير لا يعرف المجاملة، وما في ذهنه على لسانه.

ردت جدة أخي محمد رداً أصبح جملة صرنا نرددها، ومحل تندر على عبدالله، لسنين طويلة، قالت رداً عليه:

«مالت على اللي جابوك» ومعناها: أمال الله، الدنيا على والديك، وهي كلمة «شتيمة» لمن يُعرض عليه شيء له قيمة أو قدر فيرفضه، ومعناها أنه لا يستأهل ما عرض عليه، وكلما ذكرنا الواقعة، وذكرنا اللهجة التي قالتها بها، ونبرة صوتها، ضحكنا من الأعماق، ومانزال نُذكِّر أبا طارق بها على الرغم أنه أوشك الآن يصبح جدّاً.

عودة لوالدة أخي محمد:

الصفة في بيوت الطين هي الحجرة في الطابق الأرضي، والروشن هو الحجرة في الطابق الذي فوقه، وروشن والدة أخي محمد كان روشناً متميزاً، لا يماثله إلا روشن جدتي، ولعل هذا التميز لم يكن في الروشن وحده، ولكن في جهاز العرس أيضاً، لأنها الزوج الأولى للابن الأكبر، وهو الذي يصرف على البيت، وهو القادر على تأمين الجهاز الذي يريده، فصندوق الهند الذي يُعطى عادة مع الجهاز متميز، ومن الأمور التي كانت تلفت النظر أن الوالد أعطاها مع الجهاز سراج «قمرية» وهو شيء نادر ومتميز حقاً، وضوء القمرية يستحق أن يؤخذ من اسم القمر،

فنورها أبيض مثل نوره، ولم أرها تستعملها، وأخشى أن فيها خراباً، وبياض نورها يأتي من جهاز في داخلها، يملأ مثل ملء الساعة، يمدها بالأوكسجين الذي يساعد على بياض الإضاءة وصفائها.

ومما أذكره عنها ـ رحمها الله، أنها كانت تجلس عند عمود في المصباح في الطابق الثاني، وكان قد توفي لها رضيع، إن لم تخنّي الذاكرة اسمه عبدالرحمن، فأصبح الحليب يتجمع في ثديها ويؤلمها، ولم تقبل ابنتها، أختي، وهي أكبر مني، أن ترضعها، وأخي محمد لم يستسغ حليبها كذلك، فطلبت مني، وعمري في حدود الخامسة أن أرضعها، فوافقت، وصرت أمص

الثدي، وألقي الحليب في إناء بجانبي، وعندما انتهي تعطيني حلاوة، «لأحلّي ريقي»، لأن طعم حليب المرأة للكبير غير مستساغ، ولا أزال أتذكر الطعمين، وكلما رأيت لاعب سيرك يجبر الدب أن يرقى فوق كرسي، ثم يأمره أن ينزل، والدب يطيع تلك الأوامر، وبعد هذه الطاعة يعطيه قطعة سكر، أتذكر حبة الحلاوة التي تعطيني إياها والدة أخي محمد، والحلاوة في تلك الأيام مكسب لمن يحصل عليها.

وقد مات لها أكثر من رضيع، نتيجة عدم وجود وسائل الرعاية الصحية والنظافة، وكان من يموت من الأطفال كثيراً في ذلك الزمن، ومن يعش يكون عرضة للموت بالأوبئة: الجدري والحصبة.

أنا والكتّاب:

بعد أن تحدثت عن بعض أحبائي أُعرّج على بعض ما أذكره مما يخصني، وأبدأ بأول كُتّاب دخلته، وهو كُتّاب الحيدان، (واسمه عبدالله، ولا أعرف اسم أبيه ولعله سالم)، وهو ملاصق لبيتنا، وكنت متشوقاً للدراسة فيه، لأني كنت أرى أولاداً كثيرين يدخلون هناك ويخرجون، وكان يجذبني ويعجبني ويشدني بالذات «لجَّة الطَّلعة»، وهي ضجة تأتي عند انتهاء وقت الدراسة من أصوات التلاميذ عندما يأمرهم المدرّس بأن «يلجّوا لجّة الطلعة»، فيقرؤون بصوت عال جدّاً، الآية التي وقف عندها كل واحد منهم، وهم لا يصدقون عندما يسمعون طلب معلمهم ذلك، فترتفع أصواتهم

مجلجلة، وكان ارتفاعها مقياساً لمدى فرحتهم، وكان اندفاعهم إلى الخارج منظراً لا يُنسى.

كان كل ذلك يطربني ويشدني، ولم أفكر فيما يحدث داخل المدرسة بين الدخول والخروج، فلما أدخلوني المدرسة، ومعي لوحي، وقعدت مع الصغار، رأيت المعلم يعاقب تلميذاً أكبر مني، فأزعجني المنظر، وأخافني، ولعلي شعرت أني ربما أتعرض لموقف مماثل، فلم يعجبني الأمر، فأخذت لوحي، وخرجت إلى بيتنا، وأخذت أطرق الباب باللوح، لأني لا أصل إلى «المطقّة»، فهي عالية بالنسبة لطولي، ففتحت والدتي الباب، ورأتني واقفاً هناك، ومعي لوحي، فسألتني:

هل انتهيتم؟

فقلت لها: أنا انتهيت.

ولم أعد لهذه المدرسة، ويبدو أنهم أخروني عاماً آخر، وهذه المرة أدخلوني كتّاباً بعيداً عن بيتنا، كتّاب «ضعيِّف الله»، (عبدالعزيز المحمد الدامغ) بحي «أم حمار»، وأظن أن الحيدان قفل مدرسته في ذلك العام، لأنه سكنها أسرة أخرى، مكونة من رجل وامرأته.

قضاء فروض الصلاة :

وتذكرني بعض الأماكن ببعض الحوادث، لأنها مرتسمة معاً في الذهن، فجانب منها يذكّر بالآخر، فعندما أتذكر بيت الفهد البسام، الذي اشتراه والدي توسعة لبيتنا الأساس، أتذكر أني مرضت مرضاً أقعدني عن أداء الصلاة عدة أيام، وعندما شفيت قضيت الصلوات دفعة واحدة،

على الرغم من صغر سني وعدم تكليفي حينذاك، وكأني أرى نفسي، أصلي على «الخصاف» (الحصير)، وعمتي موضي - رحمها الله، بجانبي تعُدّ لي الفروض، حتى لا أُنقص أو أزيد، وشعرت براحة بعد أن انتهيت لأني أديت واجباً كان يقلقني حمله.

تبريد التين:

من الذكريات العالقة بذهني عن هذا البيت، أنه جاءنا «طاسة» تين، هدية من أحد الأشخاص، فوضعناها في «زبيل» (زنبيل)، ودليناه في البئر بحبل، ليبقى ما بها بارداً، وقد اخترنا هذه البئر لسببين، الأول: أنها لنا وحدنا لا يشاركنا فيها أحد، أما البئر التي في بيتنا الرئيس فمشتركة

بيننا وجيراننا. والثاني: أن هذه البئر العمل عليها قليل، أما الأخرى فلا يكاد الدلو فيها يقف.

يوم وقعت:

ومن ذكرياتي في هذا البيت، بجوار هذه البئر، أني «زلقت» (تزحلقت)، وقعت في «لزا» هذه البئر، وأخذت أبكي بمرارة، رغم أني لم أصب بأذى، لتفاهة السقطة، لقربي من الأرض، ولكن لم تعجبني هذه النتيجة، ولم أقبل القول بأن يدي سليمة، ولم تصب بكسر، وليس فيها رضّ، وأصررت أن واحداً من هذين الأمرين قد أصابها، إن لم يكن كلاهما، وعليه فلابد من تعليقها في رقبتي، بعد وضع جبيرة، مثلما يفعل غيري عندما يقعون، ممن أصيبوا بكسر، ولست

أقل منهم. كيف يسمعون أني وقعت، وكسرت يدي، ولم تجبّر، ولم تعلّق؟.

بقيت أبكي بمرارة واستعطفت حتى أجيب طلبي، ولف قماش على ساعدي، وعلقت يدي بخيط متين في رقبتي، وذهبت فخوراً إلى أصدقائي «ببزّتي» الفائقة، مسروراً بتجمعهم حولي، وبمنظر الشفقة التي أبدوها، وبتأوّههم بحنان وعطف مما أصابني، مشاركة منهم في الشعور، وقد شعرت من هذا أن الجبيرة، وتعليق اليد، قد أديا الواجب، مشكورين، على أحسن صورة، ولكن سرعان ما شعرت أن هذا التعليق أصبح عائقاً لي عن مشاركة أصحابي في اللعب، وأنه آن الأوان أن أتخلص من الجبيرة بعد أن أدت دورها على

الوجه الأكمل، وكذلك حتى لا يطغى جانب الضرر على جانب النفع المجتنى.

هميعمة والقمح:

في بيت الفهد قبّة أقرب ما تكون لصالة التوزيع في البيوت الحديثة، وتسميتها قبّة فيه تجاوز، فليس لها من مظهر القبة شيء. هذه القبة مظلمة نوعاً ما، وفيها بعض أكياس القمح. طرق طارق باب بيت الفهد، ولا يفتح الصغار عادة الباب لطارق مجهول، ولكن أخي حمد لصغره، ولأن والدتنا قد حجت هذا العام، ولشوقه لها، ظن أن الطارق هي، وكان يلعب مع ابن عمته عبدالله الحمد في الحوش، سارع ففتح الباب، وإذا بامرأة تقف خلفه، فدخلت

وتوغلت في البيت حتى وصلت إلى القبة، وربما سبق هذا بحث في أماكن أخرى، وجدت في القبة أكياس القمح، وكان أحدها مفتوحاً، فملأت «حِجْرَها» (عُبَّها) منه، وسارعت بالخروج، ومع السرعة تركت شريطاً من حبيبات القمح يتبعها، حتى خرجت من البيت مسرعة.

لعل حمد وعبدالله، ظنا، في أول الأمر، أنها زائرة، وأنها ذهبت تبحث عن النسوة، ولكن خروجها المسرع، وأخذها القمح لفت نظرهما، فاستدعيا عمتي مضاوي - رحمها الله - فلما رأت شريط القمح، وعرفت أن المرأة سارعت بالخروج، عرفت أنها «هميهمة» الشحاذة، فهي خفيفة الحركة، سريعة الدخول، سريعة الخروج

ـ رحمها الله ـ وسامحها، وغفر لها، فهي لم تفعل ما فعلت إلا من ألم الجوع، ومن سوط الفقر الذي ألهب ظهر حالها، ودق لحمها وعظامها.

عودة إلى نفسي:

إني في جهاد مع الاستطراد، فكلمة واحدة كفيلة أن تأخذني دون أن أدرك، فتبعدني يميناً أو يساراً، ولا أدرك هذا حتى تكاد تنقطع صلتي بما بدأت به، فآخذ زاوية حادة لأعود إلى جادتي التي كنت عليها، وهذا ما حدث هنا عندما بدأت أتحدث عن نفسي، فكيف لا أجد أني أتحدث عن غيري، أشخاص أو أمكنة! أنا في مجتمع يحيط بي، ولا أستطيع أن أقول عن نفسي كلمة دون أن أجد نفسي مضطراً للكلام عن المجتمع.

يمكن تقسيم الدراسة في الزمن الذي كنت فيه صغيراً إلى ثلاثة أقسام رئيسة:

الأول: الكتاتيب (هذا اسمها في مكة، جمع كُتَّاب، أما في عنيزة فتسمى «مدرسة فلان» أو «المطوع فلان»)، والمُدرس في هذه الكتاتيب هو صاحبها ومنشؤها، وهو وحده يقوم بالتدريس فيها لكل التلاميذ بمستوياتهم المختلفة، وقلَّ أن يكون له مساعد، إلا أثناء غيابه، فإن كان الغياب طويلاً، لحج ومثله أناب شخصاً عنه إلى أن يعود، أما إذا كان الغياب لبعض يوم، كأن يذهب إلى قهوة في أحد المنازل، فينيب عنه أحد التلاميذ الشادين.

ويُعَلَّم في هذه المدارس القرآن فقط حتى يحفظه التلميذ نظراً مرة أو مرتين، وقد يكون المدرس في هذه المدارس إمام مسجد الحي أو مؤذنه، ويأخذ مقابل تدريسه التلميذ ريالاً في السنة، مع بعض هدايا المواسم، مثل موسم التمر، والقمح، والبطيخ.

لوح الخشب:

يكتب المدرس الآيات، المراد دراستها، على لوح الخشب، واللوح له حجم لا يزيد عن عشرين سنتيمتراً في اثني عشر، تقريباً، وفي أعلاه خَرجة فيها ثقب يسمح بتعليق اللوح عند الحاجة، وتُكتب الخطَّة في أحد وجهي اللوح، ومعنى خطَّة، أي جديدة على التلميذ، ثم عندما

يتقن قراءتها يكتب له في الوجه الثاني الآية التي تلي ما في الوجه الأول، وتصبح هذه الجديدة «خطة» والسابقة «حفظاً»، ثم بعد إتقان الخطة الجديدة يمحى الحفظ بغسل اللوح بالماء، ثم يُطلى «بغرين» مذاب، وهو نوع من الطين الحجري، فيصبح وجه اللوح أبيض ناصعاً عندما يجف، كأنه صفحة ورقة، ثم يكتب عليه بالحبر الأسود «الخطة» الجديدة، بقلم «عصفر» وهو نبات يشبه البوص إلا أنه أهش منه كثيراً.

ويستمر الأمر هكذا خطة ثم حفظاً، إلى أن يصل التلميذ إلى جزء متقدم، وسن متقدمة فيسمح له بإمساك المصحف والقراءة منه، ويهجر اللوح، ولا يسمح له بإمساك المصحف بيده إلا إذا كان

متوضئاً، وطاهراً، بعد ذلك يصبح سيره الدراسي سريعاً، ويكمل القرآن كله، فإذا أقام ولي الأمر حفلاً للتلاميذ ومطوعهم خرجوا جميعاً ينشدون:

حافظ حافظ جزو عم

حافظ حافظ كل القران

ويكتب في وجه اللوح عادة سورة من السور القصيرة، فإذا لم تكن كذلك قسمت قسمين أو ثلاثة، وأذكر أني عندما وصلت إلى سورة «البروج» قسمها ضعيِّف الله، قسمين، ولكنه أضاع الآية الحادية عشرة: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير﴾.. وقفز من: ﴿وهم عذاب الحريق﴾ إلى: ﴿إن بطش ربك لشديد﴾،

ولم أدرك هذا إلا بعد أن حفظت السورة، ومر وقت طويل على هذا، وفات أوان التصحيح، وإلى الآن عندما أقرأ سورة (البروج) أتأنّى قبل هذه الآية خوفاً ألا أقرأها، لأن ذاكرتي، وهي ذاكرة الصغر، سوف تغلبني إذا لم أتأن، ولا يلام الرجل في خطئه هذا لأنه مع هذه الكثرة من الألواح لابد أن يخطيء.

ويذهب التلاميذ عادة إلى أقرب بستان به حابوط، يغسلون ألواحهم فيه، ويحضرون معهم «الغرين» الذي يوفره المدرس لهم، وهو موضوع في ركن من أركان المدرسة، وتراهم وقد عادوا من الطلاء يلوحون بألواحهم في الهواء لتجف، وهذا منظر يتكرر دائماً، وموسيقى الذكرى تجعله منظراً بديعاً، ونغماً مطرباً.

شقاوة التلاميذ :

التلاميذ في المدرسة محكومون بنظام يجعلهم بقدر الإمكان منصرفين للدرس، ولكنهم يصبحون كأنهم شياطين أطلقت من عقال، وهم في طريقهم إلى طلي الألواح، أو العودة من ذلك، يتشاجرون، ويصرخون، ويترافسون، ويتطارحون، وويل لمن يأتي في طريقهم من المساكين الذين فيهم لوثة، رجالاً أو نساءً.

كان في طريقنا لطلي الألواح رجل أعرج يستثار بسهولة، يمد على طول الشارع «سريحاً» قص من جلد البعير، ويمده مستقيماً مشدوداً ليجف، ويثبته على الأرض بأوتاد، فيأتي التلاميذ، ويغافلونه، ويقتلعون الأوتاد، فيجري خلفهم، وهم أسرع منه،

ولا تبقى له حيلة إلا أن يشكوهم للمطوع، وقل أن يجدي هذا، لأن الحقيقة تضيع بين هؤلاء الصغار.

أنا وهذا الرجل:

يذهب «ضعيّف الله» بين آن وآخر، بعد صلاة الظهر، لتناول الشاي والقهوة في بعض بيوت أصحابه، ويغيب ما يقرب من الساعة، فيكل أمر المدرسة والتلاميذ إلى أحد منسوبي المدرسة، وفي أحد الأيام وكل الأمر إليَّ، وكانت مهمتي أن أمرّ على الطلاب[1]، وبيدي عصا المطوع، وأحثهم على مواصلة القراءة، وعدم التوقف للحديث

(١) الجاري على ألسنة الناس اليوم أن يقولوا: «أمرّ عليك»، بدلاً من «أمرّ بك»، وتقابلت مرة في شارع الوزير في الرياض مع «ثاني المنصور» ـ رحمه الله ـ وكان كل منا بسيارته، ووعدته بأن أمر عليه، فقال لي: أرجو إن فعلت ذلك فمر بغير السيارة، لأنك إن مررت عليّ بالسيارة، فرحمة الله عليّ، ومنذ ذلك اليوم لم أعد أقولها، وكان ـ رحمه الله ـ ضليعاً باللغة العربية، وقد عينه وزير المواصلات حينئذ يقرأ كل معاملة قبل خروجها من الوزارة ليتدارك أي خطأ لغوي فيها.

بين جار وجاره، فإذا توقف أحدهم قرعت لوحه بالعصا، وقلت له: «إقرأ».

وكان هناك من هم أكبر مني سنّاً، وأذكر من بينهم الأخ عثمان الحمد القاضي، زوج أختي الآن، وكان «نَطْي» الطواقي (نسجها) في تلك الأيام منتشراً بين الشباب، فلا تكاد ترى شاباً قاعداً، أو سائراً،وحده أو مع آخرين، إلا وبيده «المنشاز»[1]، وبالأخرى ما تم من نطي، وفي الجيب «المخباة» «دجة»[2] الصوف أو القطن: القطن للطواقي، والصوف للزرابيل[3]، وكان

(١) المنشاز هو الأداة التي ينسج بها، وهي قضيب حديد رفيع رأسه منحني، يساعد على جذب الخيط عندما ينفذ جيئة وذهابا في الأداة المنسوجة، والنساء اليوم عن طريق «التريكو» يقمن بما يشبه ذلك.

(٢) دجَّة : أي لفّة القطن أو الصوف التي يستمد منها الناطي مادته من الخيوط.

(٣) الزرابيل : أحذية من الصوف الملبَّس جزء منه بالجلد، وله نعل متين قوي من جلد البعير.

هناك منافسة حامية بين الشباب الأصدقاء أو المعارف في من يكمل كذا في وقت كذا.

أذكر أن أبا خالد الأخ عثمان الحمد، وآخر معه، لا أذكره الآن، كانا قاعدين على عتبة باب مرتفع، مجاور لباب المدرسة، وكان الجوّ معتدلاً، ولهذا قعد التلاميذ خارج صفة المدرسة، أقبل الرجل، صاحب «السِّرح»، فاستعد أحد الاثنين، وهما منهمكان بالنطي، وأخذ أحدهما حصاة صغيرة، ولم يكن الرجل يلبس غطاءً على رأسه، فلما جاوزهما بخطوات حصبه بالحصاة في علباه، فالتفت ورآني قريباً منه، فظن أني الذي ضربته بالعصا على ظهر رقبته، فأقبل عليّ «يحلطم» (موجه يتلاطم) ويسب ويشتم، والشرر في عينيه، فلما تأكدت أنه يقصدني

ابتعدت عنه، فتبعني، فهربت، وسلكت سوق «أم العصافير» إلى «الحيالة»، فرآني «قوَّة» وهو في دكانه الذي يبيع فيه «القت» (البرسيم)، وهو أخو روّايتنا «خويرة»، فلجأت إليه، و «ادّاريت» (اختبأت) خلفه، وأخبرته بالأمر، وكان رجلاً أسمر طويلاً ضخماً، فتلقى الرجل المطارد لي، ومسكه، ورفعه عن الأرض، مع أبطيه، وأخذ يهزه بشدة، يهدده ويقول له:

«والله، إن اقتربت من ابن عمي، أو اعترضته بعد اليوم لأقذفنّك في «جفرة الحيالة».

والجفرة تقع قاب قوسين أو أدنى، وهي مكان منخفض تطل عليها بيوت من الخلف، ترمي عليها وفيها قاذوراتها، ويقضي الباعة الذين

يجلبون أعلافهم في «الحيالة» حاجتهم فيها.

وأخذ الرجل يعلن توبته ويقول ـ وكأني أسمعه الآن ـ: «اتركني، والله، ما عاد أقرب من اللي يتنح»، و «قوَّة» يهزه كأنه عصفور في يده، ثم تركه، وعدت منتصراً، ولو كنت أعرف حينئذ أن الاعتراف بالجميل يُرد بتقبيل الرأس، لقبّلت رأس قوَّة ـ رحمة الله عليه ـ سوف أحتاج إلى سلَّم لأصل إلى قمة ذلك الرأس النبيل، الذي احتوى على أداة حكم عادلة، أحقّت الحق، ودحضت الباطل!!.

ومن ذكريات مدرسة ضعيف الله، أن مفتاح بابها سقط من يد المطوع، وهو يحاول فتح الباب، داخلها، وأبواب ذاك الزمن قفلها من الداخل، ولها «مجرى»، ومع المجرى «سِكّرة»، وهذه تكون

دائماً في أبواب البيوت، والمجرى خشبة مجوفة فيها قلاقل، عويدات تعمل بعناية، يتنوع عددها، فأحياناً تكون اثنتين، وأحياناً تصل إلى ثمان، إذا قفل لسان المجرى، أو السكة، سقطت هذه القلاقل، في فتحات عملت مناسبة لها، وفي مفتاح الخشب الذي قد يصل طوله إلى خمس بوصات تقريباً، يد يمسك بها، وفي نهايته أسنان بعدد القلاقل ويدخل المفتاح في المجرى ويرفع القلاقل، وتسحب السكة ويفتح الباب.

أدخل ضعيف الله يده ليفتح الباب، فسقط المفتاح في الداخل، فاستوجب الأمر أن تُنقض العتبة، فيدخل أحد الصغار، وكانت الصفة مظلمة، وكان أمرٍ دخولها والباب مقفل مخيفاً،

والجن دائماً في الذهن عندما تذكر الظلماء، وتردد التلاميذ فرداً فرداً في الدخول، ولم يكن خوفي بأقل من خوف الآخرين، ولكني أصغرهم جسماً، فالتفت إليّ ضعيف الله، بنظرة حنان، وقال:

«ماها إلا ولد عبدالله، يا الله، يا ولدي».

ولم يكن لي مناص بعد هذا «الانتخاء» والاستنجاد، وكما يقول المثل العامي: «إذا عزت بك فانتخ»، ويقال أحياناً: «إذا عزمت بك فانتخ»، أي إذا انطلقت بك الفرس في الميدان دون إرادتك، فجارها، وقل: «خيال الخيل» واندفع إلى الأمام مقاتلاً.

وقد اندفعت، وأنا ولد عبدالله! وأقدمت بجسم غير هيّاب (ولو أنه صغير)، وبرأس مرفوع، ألم

أصبح في هذه «الظهرية» عنترة بن شداد، وهذه العيون البريئة التي تزيد عن ستين عيناً، كلها ترمقني، وفي داخل صدور أصحابها دعاء يقول: الله، لا ينجّح القصد، حتى يمر اليوم بدون دراسة، ومع مظهري الشجاع فقد كان قلبي يخفق خفقان جسم طير في شبك.

ودخلت، وناولت المطوع المفتاح، وبقيت في الداخل حتى فتح الباب لأكون مستعداً فيما لو سقط مرة أخرى، ومنذ ذلك اليوم أصبحت المفتاح الثاني للمدرسة، المفتاح «الاحتياط»، مع اختلاف في المرات اللاحقة عن السابقة؛ إني الآن لم أعد أحتاج إلى من «ينخاني»، ولم أعد أخاف من ظلام أو جن، وتعودت على هذا العمل المجيد

النبيل، الخادم للمصلحة العامة، وبقي رأسي مرفوعاً، وجسمي منتصباً، ولم يعد قلبي يخفق، ولم يعد التلاميذ يدعون بعدم نجاح مهمتي، فما لم يقبل من الدعاء الظالم أولاً لن يقبل أخيراً، وعدم خفقان قلبي، حسب تعبير أمهاتنا، لأنه مات، وهذا وصفهن لأبنائهن عندما يأكلون من الضرب حتى يشبعوا فلا يعود يؤلمهم الضرب أو يهمهم، حينئذ يقلن: إنهم «ماتت قلوبهم».

عرادة الأطفال:

وردفي أقوال السابقين عرادة الطفل دليل نجابته عندما يكبر، فالعرادة قد تكون خميرة الشجاعة، وهذه العرادة أو الشقاوة تبرز عندما يجتمع اثنان أو ثلاثة أو أكثر، فماذا عندما يجتمع ثلاثون؟!.

في الشتاء عندما يشتد البرد، وقبل أن تنشر ذكاء خيوط شعرها الذهبية خارج المدرسة، ونحن نرتجف، وتصطك أسناننا، ويكون لها أصوات طبل وزمر، وأجسامنا نحيلة، وبطون بعضنا خاوية أو شبه خالية، وبعض الثياب لا تزيد عن أن تكون ساترة، توقد نار داخل المدرسة، التي لا تزيد عن أن تكون صفة في البيت المجاور، قفل بابها المؤدي للبيت، وفتح لها باب إلى الخارج، وسميت مدرسة، لأنها استؤجرت لهذا الغرض، وتقع في قبلة مسجد أم حمار.

نتحلق حول النار، ونتدافع، فمحيطها لا يستوعب أكثر من عشرة، ونحن ثلاثون، فهذا قاعد، وهذا واقف، وخلف الواقف واقف آخر، يمد يده وكأنه يتناول بها «حمْو» النار، ثم يأتي أحد

الأشقياء الأذكياء، ويأخذ قطعة «غرين» من المخصص لطلاء الألواح، فيرميها في النار، فتُسمع فرقعة تحسدها على صوتها، وبعثرتها للجمر، القنابل الخفيفة، فيفرنقع التلاميذ «الحاضبون» بالنار (اللاصقون بها)، ويحل محلهم غيرهم في وقت الفوضى التي تعقب هذه الهجمة، ويستمر الأمر إلى أن يصبح البرد أكثر أمناً من التدفؤ على أصوات فرقعة الغرين في الجمر!.

تصغير الأسماء:

تصغير الأسماء عند الصغار في عنيزة شائع، ويحرص عليه، وأحياناً يبقى اسم التصغير مع الصغير حتى إذا كبر، وهذا قليل، أما نحن الصغار فالمستغرب بيننا أن يُنادي أحدهم الثاني باسمه

دون تصغير، فأنا عزيّز الخويطر، وهناك عزيّز النعيم، ودُحَيم الهقاص، وصُوَيلح الدعيجاني، وعُبُود القرعاوي، والحُميدي، وسُليّم، ومُحيميد، وعُليّ، وينجو من هذا إبراهيم وأحمد، فتصغيرهما ثقيل، وكذلك منصور، وأسماء أخرى.

عزيز القنيبط ـ رحمه الله ـ كان زميلي عند «ضعيِّف الله»، ومنذ أن تركت عنيزة في أواخر عام ١٣٥٦هـ لم أره حتى عدت عام ١٣٨٠هـ، إلى الرياض، وفي يوم من الأيام سمعت أن رحيمنا أحمد الإبراهيم القرعاوي متوعك صحياً، فذهبت لزيارته، ووجدت هناك صالح العلي المساعد[1] زميلنا، وصديقنا، قد جاء لزيارته، ووجدت هناك عبدالعزيز القنيبط، فالتفت إليه

(١) توفي - رحمه الله في جنيف يوم الأحد ١٦ رجب ١٤٢٦ هـ - الموافق ٢١ أغسطس ٢٠٠٥ م

الأخ صالح، وقال له، مشيراً إليّ:

هل تعرف هذا؟

قال عبدالعزيز: لا.

قال: هل نسيت رفيقك عند ضعيف الله؟

قال: هَهْ، عزيز الخويطر!.

كان هذا التصغير أخف على اللسان عنده من الاسم الأصل، وأحياناً تصغير أسماء الكبار له دلالات معينة، يؤتى بها مزحاً، أو لمزاً إذا استُشعر بعض الكِبْر عند الشخص.

الغربيون في عنيزة:

ومن المناظر التي كان يمر بنا أصحابها، ونحن في مدرسة «ضعيّف الله» بعض الإفرنج، وكان بعضهم يلبس قبعة عن الشمس، فيقول الناس إن

هؤلاء نصارى، ويضعون «الكبوس» (البرنيطة) حتى لا يروا ربهم، أي لا ينظرون إلى السماء، وكان بعضهم يصورنا، ويقول الناس عن هذا «عكس»، عَكَس فلاناً يعني صَوَّرَه، وليتني أعرف من كان هؤلاء لأرى الصور التي أخذوها، وإن كنت أجزم أني لن أعرف صورتي أو صورة أحد من زملائي، لأننا تغيرنا عما كنا عليه حينئذ.

وكان يقال لنا إنهم لا يمرضون أبداً إلا مرض الموت، وكنا نتقزز من النظر إلى وجوههم، لشدة إحمرارها، والشمس تزيدها احمراراً، وكنا نعجب كيف يستطيع أحد أن يأكل معهم، لأن وجوههم تثير الاشمئزاز والقرف وقت الأكل.

الأطباء الإفرنج :

وكان من مساعدة الملك عبدالعزيز للناس صحياً، أن سمح لبعض أطباء التبشير في البحرين أن يأتوا النجد، ثقة منه بالاستفادة الصحية، وأنه ليس منهم خطر على عقيدة الناس، فهي أقوى من أن يؤثر فيها التبشير، بل الأمل أن يُسْلم أحد هؤلاء، وكان أشهر اسمين عند أهل عنيزة من هؤلاء: «ديم» و «هرسون»، وكانت روحهما خفيفة ويحبون التبسط مع الناس، ومداعبتهم، وهذا من مستلزمات التبشير.

ديم والدّلاّل :

من القصص التي تُروى عن مداعبتهما للناس، إن «ديم» مر عصر يوم بسوق المسوكف، أكبر سوق

بعنيزة، وقت ازدحام الناس، بائعين ومشترين، وإذا بأحد الدلالين «محرّج» يلمح ديم، فناداه:

يا «ديم»، سنّي يؤلمني.

قال له «ديم»: افتح فمك، واغمض عينيك، ولا تفتح عينيك، أو تقفل فمك، مهما كان الأمر، إلى أن أخبرك بذلك بنفسي.

إنصاع الدلال للأمر، وفتح فمه على أشده في وسط السوق، وأغمض عينيه، فتركه ديم هكذا، وسار في طريقه لغايته، ووقف الناس ينظرون إلى الدلال، وهو بهذه الحال، ولم يعرفوا سبباً لذلك، ولم يهتدوا إلى تفسير، وكلما حاولوا الاستفسار من الرجل لم يستطع أن يخبرهم وفمه مفتوح على أشده، فلما أدرك أن في الأمر شيئاً فتح

عينيه، وعرف ما حدث، وعرف الناس السر.
وصارت هذه القصة حديث الناس في عنيزة مدة من الزمن.

الطبيب ديم والعَلَقَة:

أعجب الناس بالطبيبين الافرنجيين، وصاروا يدّعون أنهما حلاّ طبيّاً، وبطريقة ذكية، بعض ما عجز عنه آخرون.

والقصة التي أدت غرضها وأدهشت الناس هي:

نسب إلى الطبيب «ديم» النطاسي، أن رجلاً جاءه يشكو «عَلَقَة» في داخل حلقه، وأنها مع الوقت انحدرت إلى جوفه، وبقيت هناك مستمرة في مص دمه، فجاء ديم «بغربة» من ماء آسن،

وقرّبها من فمه، فشمّت «العلقة» رائحة «الغربة»، بيئتها الطبعية، فارتفعت من مكانها، مارة بحلقه حتى خرجت إلى حيث الغربة، وشفي الرجل.

الطبيب ديم والحَلَمة :

قصة ثانية، فيها خيال مغرق في البعد، ألصق بنطاسة «ديم». قيل إن رجلاً جاء إلى ديم يشكو علّة في حلقه، فكشف عليه ديم، فوجد أن في حلقه «حَلَمة»، وهي حشرة تعيش على ثدي الحيوان، خاصة البقر، فتمص من دمه، ورأى ديم أنها ممسكة بالحلق مسكة قوية، وخاف إن هو أنزل معداته في الحلق ألا يتقن العمل، لأنه لا يتمكن من رؤيتها، وإذا أخذها بطريقة غير فنية فقد تقتطع شيئاً من جدار الحلق، فتجرحه،

فتسبب مضاعفات، لا يعلم مداها إلا الله، ففكر، ثم اهتدى إلى طريقة ذكية، طلب جلدة من ثدي بقرة، مذبوحة حديثاً، ثم ربطها في خيط، فأنزلها إلى حيث الحلمة، فبمجرد أن شمت رائحتها، تركت جانب الحلق، وأمسكت بجلدة الثدي، بشوق ولهفة، قادتها فطرتها إلى ذلك، وبرئ الرجل من علته هذه!.

وزغة في الدماغ:

والقصة الخيالية الثالثة فيها إبداع وتفصيل، وفيها فكر وذكاء في المعالجة، والتغلب على الشكوى. جاء رجل يشكو صداعاً عنيفاً في رأسه، فكشف عليه ديم، ووجد على أعلى الدماغ، متمركزاً، «بعرصي» (وزغة) وهو سبب الصداع،

ففتح ديم «طبقة» الرأس العليا، وخشي إن هو أمسك الوزغة من ظهرها، واقتلعها، أن تمسك بالدماغ، وتخرجه معها، فتقضي على صاحب المخ، ففكر ملياً، ووصل إلى الحل، فصار يرفع بهدوء رجل الوزغة، ثم يضع تحتها قطناً، واستمر هكذا حتى أكمل وضع القطن تحت الأرجل كلها، بعد ذلك مد يده بيسر وسهولة، والتقط الوزغة، ولم تمسك بأرجلها غير القطن، وقذف بها بعيداً.

لم يقل لنا أحد كيف جاءت الوزغة، ومن أين دخلت، لم يكن هذا يعني رواة القصة، ولم يكن هذا يهمنا حينئذ؛ المهم أن هذا الخيال المنطقي في مرحلة العلاج أقنعنا إلى حين، وغيرنا بقي مقتنعاً به إلى أن مات.

تلميذ لا يُنسى :

من ذكريات مدرسة ضعيف الله أنه في حدود عام ١٣٥٢هـ أو ١٣٥٣هـ، جاءنا تلميذ من إحدى البلدان في القصيم، وكان أكبر منّا سنّاً، ولكننا أحببناه، وصادقناه، وكنت وإياه قد وصلنا سورة «غافر»، ولكنه لم يبق معنا إلا أشهراً قليلة، ثم تركنا، ولعله كان طموحاً إلى علم أكثر مما عند ضعيّف الله، هذا الشاب هو الشيخ الجليل صالح العلي ـ رحمه الله ـ الذي وصل إلى درجة عالية في العلم في الرياض، وقد ذكّرته، قبل وفاته، ووجدت أن هذه المزاملة لم تغب عن ذهنه بكل تفاصيلها، ولا أذكر الآن هل كان كفيفاً عندما جاء إلى عنيزة، وهو الأغلب، أو أنه كف بصره بعد ذلك.

ضعيف الله والحج :

كان مطوعنا ضعيف الله يحج كل عام، ويقال إنه يحج بمقابل لأناس آخرين، ولعل هذا يساعده على المعيشة، لأن المدرسة لا تغل عليه كثيراً، كنا نتطلع إلى عودته ليعطينا «الحقاق»، وهو الهدية التي يأتي بها الحاج للصغار، من «حلاوة» وغيرها، وهي مثل ما يعطى في الأعياد، وكان حقاق ضعيف الله للمجتهدين من التلاميذ أربع حبات من الحمّص (الحمبص)، وملبّسة واحدة فقط، وهذا يذكِّر بالديك والدجاج فهن متعددات وهو واحد، ولكن هذه الحبات الأربع من الحمّص، وهذه الحبّة من الملبّس، لها قيمة عندنا، ونبقى نتذكر طعمها إلى العام القادم.

الصغار والمطر:

المطر مثلما هو حبيب الكبار، فهو كذلك حبيب الصغار، وكان مجيؤه مصدر فرحة لنا، وبهجة من عدة نواح، منها أنه يهيء لنا مجالاً جديداً للعب أرحب مما اعتدنا عليه، ومنها أنه غالباً يعفينا من الذهاب إلى المدرسة، ومنها أنه يسمح للكبار بالصلاة جمعاً، وأحياناً تكون الصلاة في الركاب إذا كان المطر ينزل بغزارة، ونحن بهذه الفرحة ننسى أنفسنا، ونقف تحت المرازيم «المثاعيب»، ونخوض في مياه الشوارع، وننسى ما قد يكون هناك من أضرار على الثمار، وعلى بيوت الطين، وهو ما يهتم له الكبار.

والجزء المظلم بين هذه الأشعة المبهجة هو مجئ

المطر يوم جمعة من شهر صفر، لأن المتواتر عند الناس حينئذ هو أن القيامة سوف تقوم في شهر صفر في يوم جمعة غائم، وأن هذا سيحدث عندما تتنزل حصاة في بيت المقدس معلقة بين السماء والأرض في كل سنة مقدار حبة شعير، فإذا لامست الأرض قامت القيامة، في اليوم المذكور من الشهر المحدّد، مع الطقس الموصوف بكثافة السحاب فيه، ويقال عندئذ إن الحصاة قد نزلت عن وجه الأرض، وإنه يحفر تحتها حتى لا تلامس الأرض، ولكن لكل شيء أمد وستأتي سنة تصل فيها إلى الماء، فيصبح أمر الحفر مستحيلاً، وتقوم القيامة.

وهذه الحقيقة كانت مصدر قلق لنا وخوف، ولا تدعنا نهنأ بالمطر، وكنا نتوقع القيامة، إذا

اجتمعت كل هذه الظروف يوم جمعة غائم في شهر صفر.

أنا وتعلُّم الخط:

كان عمي إبراهيم ـ رحمه الله ـ مهتماً لخطي، وكان يتابع تحسينه باهتمام، ولأن الورق غال فقد كان يعمد إلى الورق الذي تلف به «طيق» القماش، فيقصه بطريقة تجعله كأنه فرخ الورق المعد لكتابة الرسائل، ويكتب في أعلى الورقة سطراً أكتب تحته أسطراً إلى آخر الصفحة، وكان يتفحص خطي، ويرشدني إلى ما يحتاج إلى تحسين، ووجد في مرحلة من المراحل أن خطه ليس هو المثالي للمرحلة التي أمر بها، فكان يرسلني للعم سليمان الصالح البسام، أو

أخته منيرة الصالح ـ رحمهما الله تعالى ـ وكان خطهما متشابهاً، لا يكاد المشاهد لهما يفرّق بين الخطين، وكان خط والدي يشبه خطهما، وكنت أذهب إلى الخالة منيرة في بيتها، وكذلك العم سليمان، وكانا يشجعاني كثيراً، مما يجعلني أزيد في الاعتناء حتى أنال رضاهما ـ رحمهما الله ـ وكان الخط الذي يكتب خليطاً بين النسخ والرقعة، وما يضيفه صاحب الخط من قاعدة ينفرد بها.

النوع الثاني من التعليم:

النوع الثاني من التعليم السائد في تلك الأيام في عنيزة هو التدريس في المسجد الجامع على علماء متمكنين، مشهود لهم بالتضلّع في علوم الدين:

من حفظ القرآن، ومعرفة بتفسيره، ومن فهم تام للتوحيد والفقه وأصوله والفرائض، وقاضي المدينة يكون دائماً في مقدمتهم، وكذلك إمام المسجد الجامع إذا لم يكن هو القاضي، وأغلب حلقات الدرس تعقد بعد صلاة الفجر عند الشروق إلى أن ترتفع الشمس، وبعض الدروس بعد صلاة العصر، وترى طلاب هؤلاء المشايخ، وفي أيديهم ملازم الدرس المقرر من الشيخ، أو الذي سيشرحه.

وفي زمني كان أبرز المشائخ في عنيزة، الذي تصدى للتدريس في «سرحة» المسجد الجامع، عند شروق الشمس الشيخ العالم الألمعي الحبيب عبدالرحمن الناصر السعدي ـ رحمه الله ـ، كان

عالماً جليلاً متواضعاً، صاحب أفكار متقدمة عن زمنه، وقصته عن يأجوج ومأجوج معروفة مشهورة، وما تبع ذلك من ملاحظات من بعض المشائخ، ولكنهم بعد التروّي، ودراسة أدلته سلّموا له بما جاء به.

وقد درست عليه ـ رحمه الله ـ قبل سفري إلى مكة، لأن من بدأ معه لا يتركه، وكما سبق أن قلت كان عمي، وهو من الدارسين عليه، حريصاً على دراستي عنده، وقد قطعت شوطاً في كتاب: «ثلاثة الأصول» وهو لا يزال عندي، وكما قلت: لقد كتب عمي على صفحة غلافه، وهو يجرب قلماً معه، «ذلك ما كنا نبغي»[1].

---

(١) صورة غلاف الكتاب مع الصورة الملحقة.

طلاب العلم:

كان طلاب العلم لدى المشائخ فئة محترمة، ومقدَّرة من مجتمعها، وهم أحياناً موسرون أو أبناء موسرين، وهم من البلدة نفسها، أو من بلدة أخرى جاؤا لبلدة ما لسمعة المدرس الذي هو فيها، والموسرون هؤلاء تقوم ثروتهم على مزارع يملكونها، أو أملاك يستغلونها داخل البلدة أو خارجها، داخل المملكة أو خارجها.

وبعض هؤلاء الطلاب عندما يتشبع بعلم أستاذه، يتصدى هو لتدريس أحد فروع العلم، في حلقة ينشئُها، في وقت مختلف عن وقت شيخه، لئلا يحرم من مواصلة الدراسة على شيخه؛ وبعض هؤلاء الطلاب قد يُختار للقضاء، ومن

هؤلاء الطلاب من اشتهر في بلده وخارجها، وبلدة أشيقر في الوشم عرفت بأنها من أبرز البلدان في نجد في إمداد بلدان نجد بالعلماء والقضاة، وشقراء كذلك عرفت بهذه السمعة الحسنة، وبأنها مركز مزدهر بالعلماء المتخصصين في علوم الدين واللغة.

وبعض العلماء في نجد، خريجو تلك الجوامع، ساهموا في التأليف في علوم الدين، والتاريخ، والفلك، وعلوم الأدب، أو شرحوا كتباً مشهورة، أو علّقوا عليها، وبهذا ساهموا فيما أقدموا عليه مساهمة فعالة، وقد حمد لهم اللاحقون ما قاموا به.

وكنت في صغري أسمع عن الشيخ صالح العثمان القاضي، وأنه هو المعتمد في عنيزة قبل

الشيخ عبدالرحمن السعدي، وكان قاضياً في عنيزة، مبرزاً، وله شهرة في بعض الفتاوى العويصة، أظهر في الجواب عليها وحلها نباهة وذكاءً، وعقلاً فَطِناً، وحسن فراسة، والشيخ صالح العثمان ـ رحمه الله ـ درس في مصر، ودرس في مكة، ودرس في المدينة، مما جعل أفقه واسعاً، وصدره رحباً، ونظرته للأمور تختلف عن نظرة غيره ممن لم يخرجوا من نجد.

النوع الثالث في التعليم:

وهو نوع خاص ببعض البلدان المحظوظة، والمتسامحة الطموحة، ومن بينها عنيزة، فكان فيها هذا النوع المتقدم المتميز، الطارئ على نجد، وقد وجد هذا النوع في عنيزة ترحيباً وتشجيعاً، لأن

أغلب أهلها كانوا على صلة بالعراق، والمدارس المنتشرة في أرجائه، وعلى معرفة بفائدتها، وهذه المدارس تعلِّم القرآن مادة أساسية، وتعلم كذلك علوم الدين، وتعلم الحساب أيضاً بصفة رئيسة، مع الحرص الشديد على تحسين الخط، وإتقان اللغة العربية، ودراسة التاريخ والجغرافيا، والقواعد والإملاء، ويدرس فيها الأدب، ويركز فيه على النصوص المختارة شعراً ونثراً، لإعطاء الطالب ثقافة واسعة، ولإمداده بالخلق الحسن.

كان في عنيزة مدرستان من المدارس الشاملة هذه، تسمى الأولى منهما مدرسة القرزعي (حبحبا)، وتسمى الثانية مدرسة الأستاذ صالح الناصر الصالح، ومعه أخوه عبدالمحسن، وهما

توأم، وكان الأستاذ صالح الناصر الصالح قد درس في العراق، في مدرسة النجاة الأهلية التي أسسها الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في الزبير، وأكمل فيها المرحلة الثانوية، وفكر الأستاذ صالح أن يفتح مدرسة يكون لها نمط متميز، ويقال إنه، أدباً منه، لم يقدم على فتحها إلا بعد أن سمح له القرزعي بذلك.

أنشأ الأستاذ صالح: «مدرسة ابن صالح»، وانضم إليها عدد من أبناء من أدركوا فائدة هذه المدرسة وأمثالها، وقيل لي إن أول طالب التحق بها هو الأخ عبدالله السليمان المزيد، خال أخي محمد، ثم توالى التحاق الطلاب بها، وأذكر أن الطلاب كانوا يمسحون أقلام الحبر في ثيابهم

علامة على أنهم لا يدرسون في كتَّاب، وإنما في مدرسة ابن صالح.

وكان في برنامج جلالة الملك عبدالعزيز، عند زيارته لعنيزة، زيارة هذه المدرسة، وقيام بعض طلابها بعرض تمثيلية تاريخية، وكانت عن هارون الرشيد، من تأليف الأستاذ صالح نفسه، وإخراجه، ولا أنسى منظر هؤلاء الطلاب، وقد لبسوا ثياب عصر هارون الرشيد، وهم يمرون بالسوق عصراً في طريقهم إلى المدرسة.

وأذكر أنهم كانوا ينشدون نشيداً نفهم أحياناً كلماته، وأحياناً تضيع علينا بعض الكلمات، فنكملها بكلمات من عندنا، لأن بعضها يدغمه اللحن، وأذكر من هذه الأناشيد نشيداً يبدأ:

هيـــا بنـــا هيـــا بنـــا

نحمـي البـــلاد بروحـــنا

ثم لا تستبين لنا الكلمة التي يبدأ بها البيت الثاني، فنجتهد اعتماداً على النغم ونكملها بقولنا: (ونعوصها بنفوسنا)، وهي كلمة تتماشى مع اللحن، ولكن لا معنى لها، ولا تخلو من نبو، وقد تبين لي أخيراً أن الكلمة هي «**ونعزها بنفوسنا**»، وقد وجد أن هذه المدرسة ببرنامجها المتميز، ومدرسيها القديرين، تصلح أن تكون انطلاقة للمدارس الحكومية المنظّمة.

فلما تقرر في عام ١٣٥٦هـ فتح مدرسة تحضيرية حكومية في عنيزة، فتحوها، وجعلوا إدارة المدرسة الجديدة للأستاذ صالح، وبهذا حَلَّت المدرسة

السعودية محل مدرسة ابن صالح، التي أدت دورها على خير وجه.

التحاقي بالمدرسة التحضيرية :

فتحت المدرسة السعودية بعنيزة، في حوش صالح العلي، وهو أساساً حوش للبعارين، على جوانبه غرف استخدمت فصولاً دراسية، وبجانبها حوش آخر استعمل للسنة الأولى بفصليها، وقد قسم الطلاب الذين التحقوا بها زرافات ووحدانا، إلى ثلاثة أقسام:

* القسم الأول: أدخل فيه التلاميذ السنة الأولى التحضيرية، وهؤلاء هم الذين جاؤا من الكتاتيب، ولم يقطعوا شوطاً في دراسة القرآن، وأذكر منهم أخي حمد، ومحمد العبدالرحمن

الفريح، وعبدالله العبدالعزيز النعيم، ولأن عددهم كثير وضعوا في فصلين اثنين.

* القسم الثاني: وهي السنة الثانية التحضيرية، وألحق بها من جاؤا من الكتاتيب، وقد حفظوا القرآن نظراً، أو قطعوا فيه شوطاً في الكتّاب مثلي، ومثل الأخ سليمان العبدالعزيز الزامل، وعلي السيوفي، وعبدالله الصالح الفالح، وصالح العبدالعزيز النعيم، وعبدالله اليحيا، وعبدالله العبدالرحمن الوابل، وصالح الزغيبي، وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن.

* القسم الثالث: وهي السنة الثالثة التحضيرية، وهي أعلى فصل في المدرسة، والذين التحقوا بها هم الذين كانوا قبل ذلك في مدرسة ابن

صالح، وأذكر منهم عبدالرحمن العبدالله أبا الخيل، وعبدالله الحريقي، وعبدالله الشرقي، وعبدالرحمن الشرقي، وعبدالرحمن الصالح العليان، وعلي السليمان الحمدان، وكان يتعاقب على تدريسنا الأستاذ صالح، والشيخ سليمان الشبل ـ رحمهما الله ـ.

وأذكر أن مشكلة برزت، بعد إنشاء المدرسة مباشرة، وهي كيف يُدخل الطلاب للفصول، وكيف يخُرجون، ففي مكة، مثلاً، هناك الصفارة (الصُّفّيرا)، ولكن هذه غير مقبولة في نجد، لأن بعض المعترضين عليها أدخلوها في مدلول «المكاء» و «التصدية». وسرعان ما جاء الحل الملائم، باختيار ساعة منبه (خرّاشة)، تبرز من

نافذة غرفة المدرسين في الطابق الثاني، «فَتَرنّ»، فإن كان الطلاب خارج الفصول دخلوها، وإن كانوا داخلها خرجوا منها.

وكانت الغرف أساساً مصممة غرفاً يضع فيها الرعاة عُدد الجمال، وينام بعضهم فيها، فلا أبواب تفتح وتقفل، لأن الباب لا يعدو أن يكون فتحة في الجدار، والنافذة فتحة مثله، وللمرء أن يتصور حال الطلاب في الفصل في الشتاء، لا دفء لهم إلا أنفاسهم المتجمعة، وفيها كفاية لهم لكثرتهم، وتزاحمهم في الغرف الضيقة! وأفسح ما في المدرسة حوشها الذي يجتمع فيه الطلاب في الفسح، وفي الصباح استعداداً لإنشاد النشيد اليومي، وفي العصر بعد الصلاة لمجازاة من سجل عليه ذنب استحق بسببه أن يعاقب.

مواد الدراسة :

كانت مواد الدراسة سبعاً، يضاف إليها في كشف درجات الإختبار «السلوك والمواظبة»، وكان لكل مادة عشر درجات، وكان أربعة منا يحصلون على الدرجة الكاملة «تسعين درجة»، لأن كل مادة لها عشر درجات، وقد احتاروا فيمن يضعونه رئيساً للفصل، فحلوا هذه المسألة باختيار أن يكون الترتيب حسب الحروف الهجائية، فصار سليمان الزامل هو الأول، وأنا الثاني، وعبدالله الفالح الثالث، والرابع علي السيوفي.

وكان علي - رحمه الله - ذا صوت بديع في قراءة القرآن، مع بحّة جذابة، فإذا وصله «الدور» في القراءة أنصتنا، وكأن على رؤوسنا الطير،

وودنا أن يستمر فلا يسكت، وقد أثبتت الأيام أن عبدالله الصالح الفالح عبقري لا يُجارى، وظهرت عبقريته واضحة عندما التحق بمدرسة دار التوحيد في الطائف، فكان أعجوبة في الذكاء، وقوة الذاكرة، وسرعة التحصيل.

حادثة غريبة :

في عصر يوم من الأيام، بعد انتهاء الدراسة، وقبل أن ننصرف لبيوتنا، اصطففنا كالمعتاد في حوش المدرسة، كل فصل على حدة، ثم بدأ الأستاذ صالح يستدعي «المخملين» (المخطئين)، الذين استحقوا جزاءً، فنادى أحد الطلاب، وطلب منه أن يبسط يده، فضربه عليها عدة مرات، وكانت دهشتنا بالغة، لأن هذا الطالب،

متقدم في دراسته، وعرف عنه الهدوء، وحسن الخُلُق، وكان لا يؤذي أحداً، وأخذنا نتطلع لمعرفة سبب الجزاء الذي أوقع به، وما هي الجناية التي ارتكبها، والجُرم الذي أقدم عليه، أو من هو الذي شكاه، ونحن في حيرتنا هذه، وتساؤلنا جاءنا الجواب الشافي من الأستاذ صالح ـ رحمه الله ـ إذ أعلن أن زميلنا هذا «يُربّي» كلباً، ويحتفظ به في «الشريمية»، فسقط فلان هذا من نظر بعضنا إلى الحضيض، وارتقى في نظر آخرين إلى عنان السماء، وغبطوه على هذا الاقتناء، وحسدوه على هذه الهواية، وبعضهم تمنى أن «يُربّي» جُرِيّاً، ولكنه لا يستطيع.

لا أتذكر الآن هل أثرت هذه الحادثة على

درجات السلوك عند هذا الطالب، أم لا، ولعلها لم تؤثر، لأنها عُدّت أول حادثة، ولست على يقين من هذا الأمر، لأني سافرت من عنيزة قبل الاختبار النهائي لهذا العام.

الأناشيد :

أثناء وقوفنا في «طابور» الصباح، بعد أن يكتمل وصول الطلاب، ينشد الأستاذ نشيداً أمامنا لأول مرة، ثم بعد ذلك، في الأيام المقبلة، يَكِلْ إنشاده إلى أحد الطلاب النابهين، حسني الصوت، وكان من أبرزهم معالي الأخ الأستاذ عبدالرحمن العبدالله أبا الخيل، وكان صوته جميلاً، وكان من طلاب مدرسة ابن صالح سابقاً، وكان يحفظ جميع الأناشيد قبل أن نلتحق

بالمدرسة، وهناك مقطوعة شعرية كانت تُنشد بلحن مميز كل صباح، ولهذا بقيت كلماتها ولحنها في ذهني إلى الآن، وتبدأ:

سمعت شعراً للعندليب

تلاه فوق الغصن الرطيب

إذ قال نفسي نفس رفيعة

لم تهو إلا حسن الطبيعة

وددت منها حسن الربيع

أحسن بذاك الحسن البديع

فالعيش عندي فوق الغصون

لا في قصور ولا حصون

أطير فيها من فرط وجدي

من غصن ورد لغصن ورد

وسـل نسـيم الأسحار عنـي

كم هز عطـف الأغصـان لحـني

يا قـوم إني خُلقت حـرّاً

لا أرضـى إلا الفضـا مقـرّا

فـإن أردتـم أن تؤنسـوني

ففـي المبـاني لا تحبسـوني

وإن أردتـم أن تنطقـوني

بمـا أغنـي فأطلقـوني

وأذكر بيتين من مقطوعة أخرى هما:

يارب هيئ لنا من أمرنا رشدا

واجعل معونتك العظمى لنا سندا

ولا تكلنا إلى تدبير أنفسنا

فالعبد يعجز عن إصلاح ما فسدا

أنت الغني...

لا أذكر الباقي، ولعل الأخ الحبيب عبدالرحمن الصالح العليان يذكره، هو أو الأخ العزيز عبدالعزيز العلي النعيم، فهي أبيات جميلة، ولحنها جميل مثلها، وحناجرنا في تلك الأيام رنانة طنّانة!.

***

خاتمة :

أقف هنا حتى لا تزيد صفحات هذا الجزء، فيكون ذلك على حساب الجزء الثاني أولاً، وعلى حساب القارئ ثانياً، لأن الكتاب إذا كثرت صفحاته ثقل، وإذا ثقل أتعب حامله، فيجعله يتفادى حمله وقراءته، ويفضل غيره مما صغر حجمه، وكبر حرفه.

والجزء الثاني سوف يكون كذلك عن حياتي في عنيزة إن شاء الله.

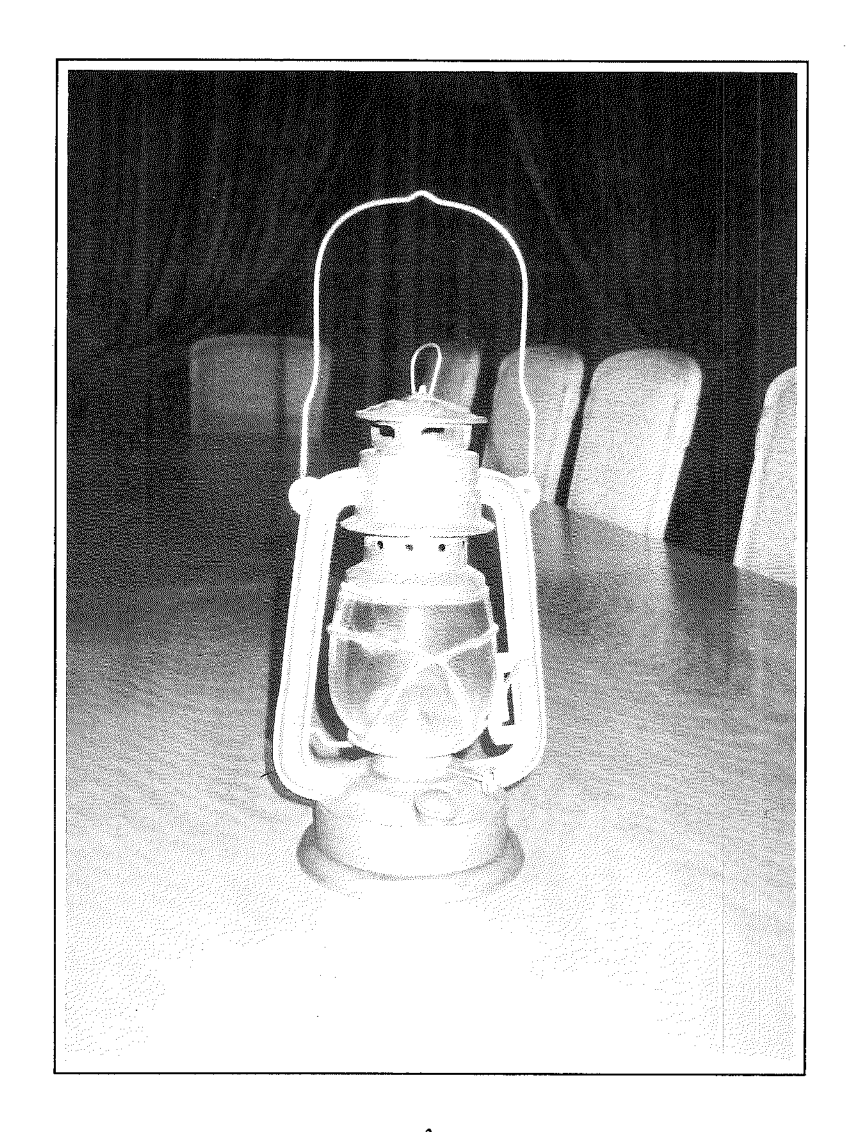




ملحق الوثائق والصور



هذه صورة للوالد وقد بلغ سبعين عاماً،
أخذت لوضعها في جواز السفر



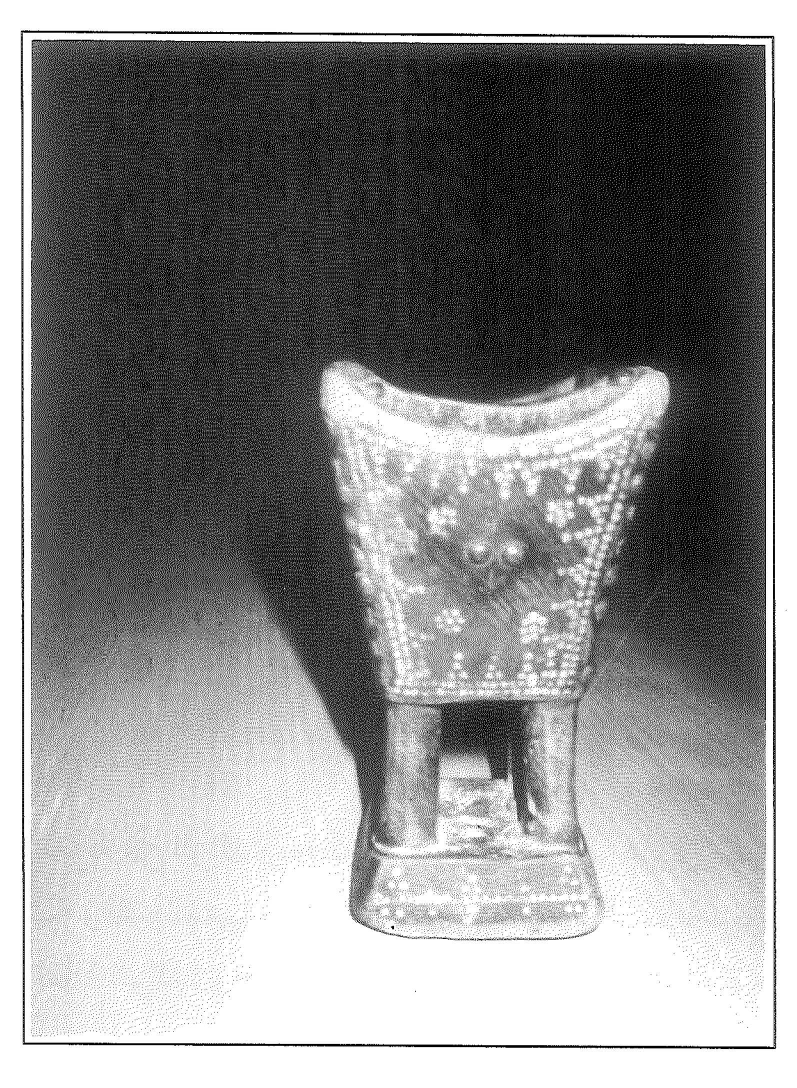
أحد الفوانيس التي تُعد في زمننا متقدمة



الناظور وقد مُدّ مدّاً كاملاً



هذا هو الناظور الذي كان الوالد ـ رحمه الله ـ يستعمله في رحلاته وأسفاره: الجراب، والناظور بفتحة واحدة والأخرى تتبين في الصورة الثانية، وقد فتحت الفتحات كلها



هذه مبخرة قديمة آلت في آخر الوقت للوالدة
وحجمها ١٢X٧,٦ سم ، وعمرها لا يقل الآن
عن مائة وخمسين عاماً

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة الودودين الأعزاء أحمد ويوسف ابنا المرحوم الشيخ إبراهيم العثمان القرعاوي حفظهما الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد بلغنا ما كدر الخاطر غاية التكدير وإن كان هو بتقدير اللطيف الخبير
وهو انتقال والدتكم من هذه الدار إلى جوار العزيز الجبار فتغمدها الله برحمته وأسكنها فسيح جنته وأعظم الله
أجركم وأحسن عزاكم فيها وجعلكم الله لها بعدها ملاذاً لمن ذاق فقدها والله يحفظكم المحب

عبد الله ١٢٧٤ / ٥ / ١٧

هذه تعزية من الوالد وبخطه للأخوين أحمد القرعاوي ويوسف بمناسبة وفاة والدتهما ـ رحمهم الله جميعاً ـ وهذه الرسالة تُري شيئاً من ثقافة الوالد، وحسن اختياره لكلماته، والمعاني الواردة بهذا.

هذا ما كنا نبغي

﴿هذه ثلاثة الاصول وادلتها﴾

ويليها

«شروط الصلاة وواجباتها واركانها»

واربع القواعد

تأليف

شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب

اجزل الله له الاجر والثواب

ويليها

لمعة الاعتقاد الهادي الى سبيل الرشاد

تأليف

الامام العالم الاوحد شيخ الاسلام موفق الدين

عبد الله بن احمد بن قدامة المقدسي

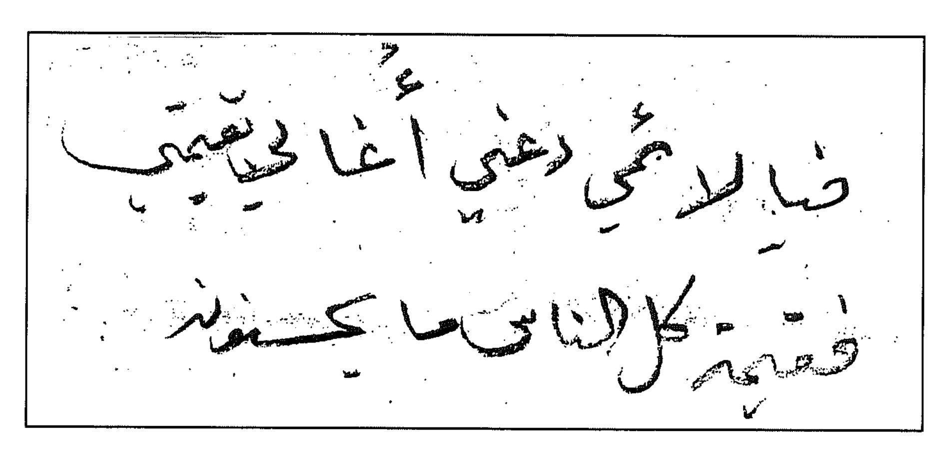
ويليها قصيدة الامام ابي بكر ابن ابي داود في التوحيد

طبعت على نفقة عيسى بن رميح العقيلي

وقفاً اثابه الله اعظم الثواب

دمشق | مطبعة الترقي بمحلة القيمرية | العاصمة

هذا هو غلاف كتاب «هذه ثلاثة الأصول وأدلتها» التي ذكرت في ص (٣٥٠) أن عمي كتب جملة [هذ ما كنا نبغى] وهو يجرب قلماً أراد أن يكتب لي به «مشقا» أكتب تحته.



كان الوالد ـ رحمه الله ـ واسع الثقافة، يروي الشعر، ويحفظ القصص التي لها مرام خُلقية، ومدلول حسن، ولهذا كان إذا تكلم أصغى الحاضرون، وكان ينتقل من قصيدة إلى قصة، وإلى مثل ثم حكمة، والبيت الذي في أعلى الصفحة مثل من الأمثلة التي كان يحرص على عرضها، مؤكداً إيمانه بمدلولها، وهي بخط يده. وهذه نموذج لما ذكرته عنه. وسيكون هناك تفصيل ـ إن شاء الله ـ في الجزء الرابع الخاص بإقامتي في مكة. أما هذه فلمحة لما ذكرته في ص: (٧٥).

بسم الله

أقر حماد بن علي بن خويطر في حال جواز اقراره شرعاً انه وقف جميع و

سبل جميع عماره الشارب من نخيل الحادوس سلام المشهور في خط [illegible]

من عنيزة إقراراً شرعياً فحكم في ذلك كله [illegible] الثلاث الذرية على اولاده

ثم اولادهم ما تناسلوا وتعاقبوا على ان من مات عن ولد فنصيبه لولده

عن غير ولد لمن في درجته من اولاد ابيه اذا نزلوا والاقرب فالاقرب الوقف للذكر

مثل حظ الانثيين ولا يدخل اولاد البنات واستثنى ست نخلات في

حويط شعيب والذي كتبها فادم فهن ضحية لدايم الدهر وما بقي تابع الوقف [illegible]

ثنتين [illegible] ثنتين للضعيف من اولاده وثنتين واحدة قبلي الصفا

وواحدة قبلي الحلوة على [illegible] اي وقت كان ان احتاج احد من اولاده فهو

ولي والا فعلى الاقرب فالاقرب وولي الست المصلح من اولاده والولي واستثنى

غلته مدة حياته شهد على جميع ذلك حمد بن ابراهيم [illegible] الخليل صالح بن عبدالله

ابن [illegible] وشهد به وكتبه واثبته عبدالله بن عضيب الخليل وهم [illegible]

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم حادي وعشرين ذا الحجة ١١٣٨

إحدى الوثائق التي تبين السبيل الذي سبله جدنا
حماد بن علي بن خويطر في ١١/ ١٢/ ١١٣٨هـ

صورة بومباي ٢٤ شوال سنة ١٣٤٣ الى بصره

حضرة جناب الامجد الافخم سيدي العم المكرم الحاج ابراهيم ابن عبد الرحمن القاضي المحترم سلمه الله تعالى امين

بعد السلام عليكم ورحمة الله وبركاته على الدوام اولاً السوال عن خاطركم ارجو الله انكم بخير وعافيه تقدم خلاف مع هذه وجنابكم بخير خصوصاً عن لازم جنابكم يسر المولى ومن مدة يومين تحمل الى الكويت عند محمد العبد الرحمن السلمان

عدد
٢ سحارتين صيني } بعلامة م ال ب ك ٢٤٩ / ٤٠٠ القاضي
١ صندوق سورتي }
١ سحارة صيني بعلامة م ال ب ك ٢٥٩ / ٤٠٠ شراكه
٢ سحارتين صيني بعلامة م ال ب ك ١٤٢ / ١٩١ حمدان
٦

والجميع بمارك ASH

الجميع عدد ٦ نقلاة

عرفنا محمد السلمان يقدمهن لجنابكم مع اول متوجه والذي يصيب عليهن من كمرك ومصرف الكويت يقيده علينا بالحساب والذي لجنابكم كما هو موضح وموضح بالقايمه سحارتين صيني وصندوق السورتي الذي بعلامتكم ونصف سحارة الذي عليها شراكه ونصفها الثاني هيل مربوب خاصنا . سحارتين الذي بعلامتنا موجب ما هو مشروح لجنابكم عدد الذي باطنهن مورقه بطي هذا ارجو فضلاً من سيدي تكلفون من يصرفهن بالربح المقسوم لا عدمنا وجودكم وسعر الزمه بالسرعه حين يتم فيها ارسلناهن على سبيل التجربه ان رأينا فيهن صرفه ربما نقدم خلافهن وانشاالله انتم والذي عنيدكم كله نبركم حساب الذي لجنابكم تجدونه بطي هذا راجعوه وقيدوه لنا بالحساب والذي يصيب على الذي لجنابكم من مصرف وكمرك الكويت بعد وصول التعريف من ابن سلمان نقيده على جنابكم ونعرفكم فيه ثم قيدوه علينا بالحساب كشرحه

٢٠٠ روبيه لنا الواصله من الحاج حمد الحمود الشبل
١١٨١/٢ «‏ «‏ «‏ «‏ حماد السليمان الشبل
٣٨١ الجميع ثلاثماية وواحد وثمانين روبيه قيدناها لجنابكم قيدوها علينا

صندوق السورتي هو سبب عطال الاغراض والله انه يسبوا مرتين ونرده يحصل فيهن كسور نمايد ولا نقبلهن وهالذي ارسلنا سالم من كل عيب وسامانه فاخر عرفونا عسى انه جاء لجنابكم والفنيين حرصنا على الشي الطيب الورق الذي ما راح مثله من الصنع الجديد نسئل الله يقدر مالكم به ثمره ولنا به الجميل مع جنابكم هناك يصير على ما به مسرة خاطركم يعلم الله انني متكدر زايد من عطالة ولكن كما اشرح لجنابكم بواسطة الصندوق وايضا وافق ايام رمضان والشغل بالهند كثير والصايم تعرف حاله فارجو المعذرة من العطال

(لا تابع بقيه)

تابع كتابنا للشيخ المكرم الحاج ابراهيم ابن عبدالرحمن القاضي رقيم ١٤ شوال ١٣٣٠

مطلوبكم القهوة ما اخذنا لان ما يحصل هذه الايام بطرفنا شي الا الدون ماخوذة شي ترى
ما يصلح لطرفكم يحصل ايام موسم تمر الهند يوصل اليه من محل ولكن غالي وقت لهذا ما اخذنا شي
الاغراض الذي عند عبدالله العلي الخويطر قبضناه موجب الورقه وقدمناهن لجنابكم داخل الصندوق
واحدا اللحف الكلمه الغالي عند عبدالله العلي يكون معلوم جنابكم ؛ وداخل الصندوق بقشه
عليها اسم عيالنا الذينيات ارجو تسلموها الا عمنا كم ؛
طرفنا صحه ولا جاتنا وايضا الخبر اخبار حرب الدول العثمانيه والعرب في طرابلس الغرب
مع دولة الطليان مستمر للتزايد والانتصارات الان متتابعه للمسلمين في هالاسبوع حصل
ثلاث وقعات موجب التلغرافات قتل الطليان فيها عدد ٢٥٠٠ منهم عدد ١٤٢ ضابط والذي غنم
المسلمين منهم من السلاح والذخيره شي كثير ما بعد وصل تفصيل الان الخبر واصل بالتيل
الجرايد الانكليزيه مصري ووصول الجرايد العربيه وفيها التفصيل ربنا يذهب اعداء الدين
ويعز الاسلام والمسلمين امين
الاسعار رز بلم كلكته مكد لاري ١١ نقيه ١١ تبع المال شكر جاوي ٩
قهوة منقوريه ٢٢ هيل ٩٠ فلفل ١٨٠ كركم ٧٥ زنجبيل ٢٤ ريال حسب ١٤٧
ليرة عثمانيه ... وانه ١١ هذا ما لزم وما يلزم برسم الخدمه وارجو مواصلة كتبكم والسلام
والسلام على الاولاد الكرام والحمد والعام وسنا الجماعة كافه يسلمون وخصوصا الاخ حمد والولد علي
يقبلون اياديك وهم بخير

عنهم السليمان
الحمد

سوق الدلال هالسنه طيب زايد حصل وفيه
اهل محاصيل قويه ربنا يعز سوقه لانه باب رزقه
لجميع عرب الجزيره

في الصفحتين السابقتين: (٣٨٢ و ٣٨٣) ، خطاب موجه من العم عبدالله السليمان الحمدان في ١٤ شوال من عام ١٣٣٠هـ إلى العم إبراهيم بن عبدالرحمن القاضي، وهو خطاب مهم لما فيه من معلومات تكشف عن طريقة التخاطب التجاري، وعن نوع البضائع التي كانت تتداول، وطريقة التداول، وأسعار ذلك الوقت، والثقة المتبادلة بين المتعاملين، والخطاب مرسل من الهند إلى الكويت.

وقد ورد اسم الوالد في الخطاب، وهذا يؤرخ لوجود الوالد في الهند في ذلك التاريخ.

ولم يخل الخطاب من أخبار الحرب الدائرة حينئذ بين الدولة العثمانية والعرب والطليان في طرابلس، والنظرة إليها.

يلاحظ طريقة استهلال الخطاب في ذلك الزمن:

«حضرة جناب الأمجد الأفخم سيدي العم المكرم الحاج إبراهيم، وصيغة الخطاب المؤدب أثناء الخطاب: «جنابكم».

الحقيقة أنها وثيقة ثمينة بخط العم عبدالله نفسه.

رحمهم الله جميعاً.

ملحق الفهارس

أولاً : فهرس الموضوعات

ثانياً : فهرس الأعلام

ثالثاً: فهرس الأماكن

رابعاً: فهرس الوثائق والصور

أولاً : فهرس الموضوعات

الموضـــوع	صفحة
١ ـ سبب كتابة هذه المذكرات	٣
٢ ـ حياتي في عنيزة	١٩
٣ ـ الخطوة الأولى	٢١
٤ ـ والدتي	٢٦
٥ ـ مكان سكناها	٢٧
٦ ـ ولادة في المقبرة	٢٨
٧ ـ خاطب والدتي لوالدي	٣٢
٨ ـ رضاعي من خالتي حصة	٣٤
٩ ـ أمي وعمتي موضي	٣٦
١٠ ـ الحالة الأولى	٥٠
١١ ـ الحالة الثانية	٥٣
١٢ ـ دويفة اليوم	٦٤

الموضـــوع	صفحة
١٣ ـ رحلة صيد للملك خالد	٦٦
١٤ ـ امطخ وارشخ	٦٨
١٥ ـ والدي عبدالله العلي الخويطر	٦٨
١٦ ـ المطوع وقداح أبي	٧٣
١٧ ـ سفر والدي للهند	٧٧
١٨ ـ بعد عودة الوالد من الهند	٨٣
١٩ ـ قصة الوالد مع الدرويش	٨٨
٢٠ ـ دخول الوالد الوظيفة	١٠٠
٢١ ـ جهاز الريح : البنديرة	١١٣
٢٢ ـ والدي والحَمَام	١١٤
٢٣ ـ مطقة باب الربدي	١١٩
٢٤ ـ عجل برأس إنسان	١٢٣
٢٥ ـ الورل في الحقل	١٢٤

الموضــوع	صفحة
٢٦ ـ جدي علي	١٢٦
٢٧ ـ جدي وابن قريبي	١٢٨
٢٨ ـ جدي علي وأبناؤه	١٣٤
٢٩ ـ البنــاؤون	١٣٥
٣٠ ـ جدي وطريقته في التربية	١٣٨
٣١ ـ جدي وموقعة المليداء	١٤٤
٣٢ ـ آخر مرة رأيت فيها جدي	١٦٦
٣٣ ـ ويخلق ما لا تعلمون	١٧٣
٣٤ ـ القهوة وحفظي للقرآن	١٧٦
٣٥ ـ عبدالرحمن الهقاص	١٧٨
٣٦ ـ ريح وظلمة	١٨٤
٣٧ ـ جدتي نورة المنيع	١٨٧
٣٨ ـ عمي إبراهيم	١٩٣

الموضــوع	صفحة
٣٩ ـ عمتي حصة	٢٢٠
٤٠ ـ عمتي مضاوي	٢٢٤
٤١ ـ صالح الحمد	٢٢٩
٤٢ ـ عبدالله الحمد	٢٣١
٤٣ ـ عبدالرحمن الحمد	٢٣٦
٤٤ ـ جدي سليمان	٢٤٥
٤٥ ـ والدي رضاعاً عبدالله	٢٦٥
٤٦ ـ أخي صالح العبدالعزيز	٢٦٩
٤٧ ـ صالح الحمد والكعابة	٢٧٢
٤٨ ـ إلحق الضّو	٢٧٦
٤٩ ـ صالح الحمد يهب لنجدتي	٢٨٠
٥٠ ـ والدي ومعتدٍ عليه	٢٩١
٥١ ـ والدة أخي محمد	٢٩٦

الموضـــوع	صفحة
٥٢ ـ عودة لوالدة أخي محمد	٣٠٥
٥٣ ـ أنا والكتّاب	٣٠٨
٥٤ ـ قضاء فروض الصلاة	٣١٠
٥٥ ـ تبريد التين	٣١١
٥٦ ـ يوم وقعت	٣١٢
٥٧ ـ هميهمة والقمح	٣١٤
٥٨ ـ عودة إلى نفسي	٣١٦
٥٩ ـ دراستي في عنيزة	٣١٧
٦٠ ـ لوح الخشب	٣١٨
٦١ ـ شقاوة التلاميذ	٣٢٢
٦٢ ـ أنا وهذا الرجل	٣٢٣
٦٣ ـ عرادة الأطفال	٣٣١
٦٤ ـ تصغير الأسماء	٣٣٣

الموضــوع	صفحة
٦٥ ـ الغربيون في عنيزة	٣٣٥
٦٦ ـ الأطباء من الإفرنج	٣٣٧
٦٧ ـ ديم والدلال	٣٣٧
٦٨ ـ الطبيب ديم والعَلَقة	٣٣٩
٦٩ ـ الطبيب ديم والحَلَمة	٣٤٠
٧٠ ـ وزغة في الدماغ	٣٤١
٧١ ـ تلميذ لا يُنسى	٣٤٣
٧٢ ـ ضعيف الله والحج	٣٤٤
٧٣ ـ الصغار والمطر	٣٤٥
٧٤ ـ أنا وتعلُّم الخط	٣٤٧
٧٥ ـ النوع الثاني من التعليم	٣٤٨
٧٦ ـ طلاب العلم	٣٥١
٧٧ ـ النوع الثالث من التعليم	٣٥٣

الموضـــوع	صفحة
٧٨ ـ التحاقي بالمدرسة	٣٥٨
٧٩ ـ مواد الدراسة	٣٦٢
٨٠ ـ حادثة غريبة	٣٦٣
٨١ ـ الأناشيد	٣٦٥
٨٢ ـ خاتمـة	٣٦٩
٨٣ ـ ملحق الوثائق والصور	٣٧١
٨٤ ـ ملحق الفهارس	٣٨٥
أولاً : فهرس الموضوعات	٣٨٧
ثانياً : فهرس الأعلام	٣٩٤
ثالثاً: فهرس الأماكن	٤٠٤
رابعاً: فهرس الوثائق والصور	٤١٠

ثانياً: فهرس الأعلام

(أ)

إبراهيم الجفالي: ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٢

إبراهيم السليم: ١٤١

إبراهيم العريض: ١٦٤

إبراهيم العثمان القرعاوي: ٢٢٧

إبراهيم العلي الخويطر: ٥٨، ٧٠، ١١٤، ١٧٠، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢١٠، ٢١٥، ٢١٨، ٢٤٠، ٢٨٩، ٢٩٠، ٣٤٧، ٣٥٠

إبراهيم القطن: ٢١٥، ٢٤٢

إبراهيم المحمد القاضي: ٣٢، ٣٣

إبراهيم المنيع: ٥٠

أحمد الإبراهيم القرعاوي: ٣٣٤

أحمد الجفالي: ٢٢١

الإنجليز: ٨٦، ٨٨

(ب)

البسام: ٧٧، ٧٩، ٨٢، ٢١٤

(ت)

تركية الحمد المطرودي: ١٥١

بنو تميم: ٤٢
التمم: ٢٤١

(ج)

الجابر: ٢٤
جلوي بن تركي: ١٤٠

(ح)

خالتي حصة: ٣٤، ٣٥، ٢٧٠
عمتي حصة العلي: ٧٠، ٧١، ١١٢، ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦
حمد السليمان الحمدان: ٩٤
الحيدان: ٧١، ٧٢
حمد العبدالله الخويطر: ٧٨، ٧٩، ١٦٦، ٢١٨، ٢٦٦، ٣١٤، ٣١٥، ٣٥٨
حمد الناصر العوهلي: ٢٢٢
حمد المحمد الناصر العوهلي: ٢٢٢

(خ)

الملك خالد: ٦٥، ٦٦
بنو خالد: ٢١
خويرة: ٢٣٢، ٣٢٦
أبو خيرين: ٢٣٢
خويطر: ٢٣
الخويطر: ٢٤، ٣١، ٣٤، ٣٥، ٦٢، ٢٤٨، ٢٩٧

(د)

الدامر: ٨٣

الدرويش: ٨٨، ٨٩، ١٨١، ١٨٢

ديـــم: ٣٣٧، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢

(ذ)

الذكير: ٧٧

(ر)

الراجحي: ٤٧

الربدي: ١٢١

رقية الروق: ٣٠٣، ٣٠٤

(ز)

الزامل: ٧٧

زامل السليم: ١٤٨

زياد بن محمد بن عبدالله الخويطر: ١٤٠

(س)

السبيل: ٢١٧

السليم: ٢٧٤

جدي سليمان الإبراهيم القاضي: ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٩٤

سليمان الجفالي: ٢٢٠

سليمان الصالح البسام: ١٠٧، ١٤٠، ٣٤٧، ٣٤٨

سليمان العبدالعزيز الزامل: ٣٥٩، ٣٦٢
سليمان المحمد الشبل: ٣٦٠
سليمان المحمد المزيد العمرو: ٨٢، ٢٩٢
السناني: ٢٧٤

(ش)

الشبل: ٢١٤
أبو شرين: ٢٣٢
الشريهي: ١٠٣

(ص)

صالح الإبراهيم الخويطر: ١٦٨، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢٤٢، ٢٤٣
صالح الحمد القرعاوي: ٣٩، ٥٤، ٧١، ٢١٢، ٢٢٦، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨١، ٢٨٢
صالح الزغيبي: ٣٥٩
صالح العبد العزيز العضيبي: ٣٥، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٩
صالح العبدالعزيز النعيم: ٣٥٩
صالح العبدالله العوهلي: ٢٢٤
الشيخ صالح العثمان القاضي: ٣٥٢، ٣٥٣
صالح العلي السليم: ٣٥٨
الشيخ صالح العلي: ٣٤٣
صالح العلي المساعد: ٣٣٤

صالح الناصر الصالح: ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٤

(ع)

العامر: ١٣٤
العايد: ١٦١
عبدالرحمن الإبراهيم المحمد القاضي: ٣٢
عبدالرحمن الحمد القرعاوي: ٣٩، ٧١، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٦، ٢٣٧، ٢٣٩
عبدالرحمن الشرقي: ٣٦٠
عبدالرحمن الصالح العليان: ٣٦٠، ٣٦٨
عبدالرحمن بن عبدالعزيز المانع: ٣٣٦
عبدالرحمن العبدالله أبا الخيل: ٣٦٠، ٣٦٥
عبدالرحمن العبدالله العوهلي: ٢٢٤
الشيخ عبدالرحمن الناصر السعدي: ٢٠٥، ٣٤٨، ٣٥٣
عبدالرحمن الهقّاص: ١٧٨
الملك عبدالعزيز: ٢٦، ٦٨، ٨٤، ٨٥، ٨٦، ٨٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٤، ٢٣٥، ٢٧٩، ٣٣٧، ٣٥٦
عبدالعزيز المحمد الدامغ (ضعيف الله): ١٧٦، ٢٤٣، ٣١٠، ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٢٩، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٤٣، ٣٤٤
عبدالعزيز بن رشيد: ٨٥، ١٤٤
عبدالعزيز العتيبي: ٧٨، ٧٩

عبدالعزيز العلي النعيم: ١٧٦، ٣٦٨
عبدالعزيز العبدالله العوهلي: ٢٢٤
عبدالله الجفالي: ٢٢١
عبدالله الحريقي: ٣٦٠
عبدالله الحيدان: ٧١، ٣٠٨
عبدالله السليمان الحمدان: ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٢، ٢٥٦
عبدالله السليمان المزيد: ٣٥٥
عبدالله الشرقي: ٣٦٠
عبدالله الصالح الفالح: ٥٩، ٣٦٢، ٣٦٣
عبدالله العبدالرحمن الوابل: ٣٥٩
عبدالله العبدالعزيز النعيم: ٣٥٩
عبدالله الفوزان: ٧٧، ٢٠٤
عبدالله المحمد العوهلي: ٢٣، ٧٠، ٢٢٤
عبدالله المحمد القاضي: ٢٤٥، ٢٥٦، ٢٦٥
عبدالله الناصر العوهلي: ٢١٣
عبدالله الغنام: ٦٩
عبدالله الحمد القرعاوي: ٥٤، ٧٨، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٠٣، ٣١٤، ٣١٥
الوالد عبدالله العلي الخويطر: ٥٢، ٦٨، ٨٠، ١٠٠، ١٠٢، ١١٤، ١١٨، ١١٩، ١٣٤، ١٣٨، ٢٢٠، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٣، ٣٢٢
عبدالله اليحيا: ٣٥٩

عثمان العلي الحمد الخويطر: ٧٠، ٧١
العثمانيون: ٨٥، ٨٦
عثمان الحمد القاضي: ٣٢٤، ٣٢٥
عثمان العبدالله العوهلي: ٢٢٤
عثمان الونين: ١٨٩
عزِّيز الخويطر: ٣٣٤، ٣٣٥
عزيِّز القنيبط: ٣٣٤
عبدالمحسن الناصر الصالح: ٣٥٤
عَقيل المحمد العقيل: ٥٠
عُقَيل: ٧٦
علي الجفالي: ٢١٢
علي الحميد: ٢١، ٢٢
علي السليمان الحمدان: ٣٦٠
علي السيوفي: ٣٥٩، ٣٦٢
علي العبدالعزيز العجروش: ٧٥
جدي علي العثمان الخويطر: ٣١، ٣٣، ١٠١، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٦١، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣، ٢٩٢، ٢٩٤
علي المحمد القاضي: ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦١

(غ)

غازي بن عبدالرحمن القصيبي: ١٦٤

غرابة: ٢٥٣

(ف)

فالح: ١١٠، ١١١
فيصل بن تركي: ١٤٠
فيصل بن سعد: ٦٧
الملك فيصل بن عبدالعزيز: ٦٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤
فهل الهذيل: ١٣٦

(ق)

القاضي: ٤٢، ٧٧
القراوعة: ٢٢٩، ٢٨١
القرزعي (حبجبا): ٣٥٤، ٢٥٥
القواضي: ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٦
القويضي: ٢٤٥
قوة: ٣٢٦

(م)

ماري تريزا: ٧٨
ابن مبيريك: ١٠٣
محمد الأمين الشنقيطي: ٣٥٥
محمد السليمان الحمدان: ١٠٣
محمد العبدالرحمن الفريح: ٣٥٨
أخي محمد العبدالله الخويطر: ٨٢، ٣١٢، ٢١٩، ٣٠٦، ٣٥٥

محمد العبدالله القاضي: ١٢٤، ٢٥٦
محمد العتيبي: ٧٧، ٧٨
محمد العلي السليم: ١٨٤
محمد الناصر العوهلي: ٧٠، ١٠٨، ٢١٣
محمد اليحيا الصانع: ٢٤٣
محيجين: ١١٠، ١١١
مريم العثمان الخويطر: ١٣٤
المزيد: ٢٩٦
المطاريد: ٢٤
مطلق: ١١١
ابن معمّر: ٢٢، ٢٣
المليدا: ١٤٤
منيرة السليمان المزيد: ٣٣، ٢٩٦، ٢٩٧، ٣٠٥، ٣٠٦
منيرة الصالح البسام: ١٠٧، ٣٤٨
عمتي مضاوي العلي الخويطر: ٣٦، ٥٣، ٥٤، ٧٠، ٢٢٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٣١٥
أختي موضي العبدالله الخويطر: ٣٠٦
عمتي موضي العلي الخويطر: ٣٦، ٣٧، ٣٩، ٤٠، ٤٩، ٥٣، ٥٥، ٦٤، ٧١، ١١٤، ٢٠٨، ٣١١

(ن)

ناصر بن عبدالرحمن السحيمي: ١٤١

النعيم: ٢٤، ٥٠، ٢٧٤
جدتي نورة الإبراهيم العضيبي: ٢٩٥
جدتي نورة الإبراهيم المنيع: ٥٠، ١٨٧، ١٩١، ٢٠٥
نورة المحمد السلطان العمرو: ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٠٥

(هـ)

هارون الرشيد: ٣٥٦
هميهمة: ٣١٤، ٣١٥
هرسون: ٣٣٧

(و)

الونين: ٢٤

(ي)

يأجوج ومأجوج: ٣٥٠
الإمام يحيى حميد الدين: ١٠٠
يوسف العبدالله الفوزان: ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٥
يوسف العبدالله العوهلي: ٢٢٤

ثالثاً: فهرس الأماكن

(أ)

أبو عينين (الجبيل): ٨٣

أجياد: ١٠٠

الأحساء: ٢٢، ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٩١، ١٠٠١، ١٠١، ٢٣٧، ٢٥٦

أريتريا: ١٩٥

أشيقر: ٤٢، ٣٥٢

أفريقيا: ١٩٥، ١٩٧

أم حمار: ٣١٠

إنجلترا: ١٦، ١٧، ٨٢، ٢١٨

(ب)

باب الخلاء: ١٨٣

البحرين: ٧٥، ٧٦، ٧٨، ١٠٠، ٢١٤، ٣٣٧

برحة المولد: ٢٣٩

بريدة: ١١٦، ١١٨، ١٢٠، ١٢٢

البصرة: ٧٦، ٢١٤

بيت الفهد: ٥٩، ٦٢، ١١٤، ٢١٥، ٣١٠، ٣١٤

بيت المقدس: ٣٤٦

بيروت: ٧٨

(ج)

جدة: ٢٧

الجزيرة العربية: ٨٣

الجناح: ٢٥، ٢٨

جيبوتي: ١٩٥

(ح)

حائط الدرويش: ٧٦

حائل: ٨٥، ٨٦، ١٤٥

الحبشة: ١٩٥

الحويطة: ٢٣٣

الحيالة: ٢٨٠

(خ)

الخان اليوسفي: ٤٥

خبيقة: ٢٤٩

الخريجية: ١٨٤

الخريزة: ٢٥

الخليج: ٧٧، ٨١

(د)

الدغيثرية: ٢١٧

دهلي (دهي): ٩٣

(ر)
الرياض: ٨٤، ٨٧، ٩١، ١٠٦، ١٢٤، ٢٤١
(ز)
الزبير: ٣٥٥
(س)
السبلة: ٣٠٢
السكيتية: ٢٤٣
سوق العثيمين: ٢٨٩
سوق المعثم: ٢٨٠
(ش)
الشام: ٤٥، ٧٦، ١٦٣، ٢٢٦، ٢٢٨
الشريمية: ٢٣٠
شعب عامر: ٢٢١
شقراء: ٣٥٢
(ص)
الصفا: ١٢٣
الصومال: ١٩٥
الصويطي: ١٠٨
(ض)
الضبط: ٢٥، ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ١٢٣، ٢٤٦، ١٤٧، ٢٧٠
الضبطية: ٢٨

الضليعة: ٢٨

(ط)

الطائف: ٢٢٢

(ع)

العارض: ٨٨

العتيبية: ٩٨

عدن: ٨١، ١٩٦، ١٩٨

العراق: ٣٥٤، ٣٥٥

عقاب: ١٤٥

العقير: ٧٦

العقيلية: ٢٥

عنيزة: ٢٤، ٢٨، ٤٢، ٥٥، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٧، ٩٠، ٩١، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٩، ١١٦، ١٢١، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٢، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٦، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ٢٣٣، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٤٠، ٢٩٦، ٣١٣، ٣١٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٥٨

العينية: ٢٢

(غ)

غبنة: ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٣

(ق)

القاع: ٥٠

القسيم: ٢٣٣

القصيم: ٨٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦

(ك)

الكويت: ٧٦، ٧٨، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٨٧

(ل)

لبنان: ٧٨، ١٠٦

لندن: ٧٨

(م)

مدرسة النجاح الأهلية: ٣٥٥

المدّعى: ٤٥

المدينة المنورة: ٣٥٣

المجلس: ١٠٩

المسوكف: ٤٧، ٢١٣

مصر: ١٥، ١٦، ٤٥، ٥٨، ٧٨، ٣٥٣

المعتمر: ١٠٠

المعذر: ٢٠٢

المغيدر: ١٥٢

المقيلة: ٢٢٩

مكة المكرمة: ١٥، ١٦، ٣١، ٤٤، ٤٥، ٥١، ٨١، ٨٤، ٩٠، ١٩،

٩٣، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٦، ١٦٧، ١٦٨، ١٧٤، ١٨١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٥، ٢٣٥، ٢٣٦، ٢٥٦، ٣٥٣، ٣٦٠
المملكة العربية السعودية: ١٦، ٨٣، ٨٥، ١٩٦، ١٩٧، ٣٥١
المنطقة الشرقية: ٢١

(ن)

نجد: ٣٦، ٧٦، ١٦٤، ٢٠٣، ٣٣٧، ٣٥٣

(هـ)

الهفّوف: ٧١، ٢٥٤
الهند: ٧٥، ٧٦، ٧٧، ٨١، ٨٢، ٨٣، ٩٤، ٩٥، ٩٧، ١٠٠، ١٠٣، ١٠٥، ٢٠٣، ٢٠٥

(و)

الوشم: ٣٥٢

(ي)

اليمن: ١٠٠، ١٠٣

رابعاً: فهرس الوثائق والصور

١ ـ صورة للوالد وهو في حدود سبعين سنة

٢ ـ صورة لفانوس (سراج)

٣ ـ صورة للدربيل (ناظور) بوضع

٤ ـ صورة للدربيل (ناظور) بوضع آخر

٥ ـ صورة لمبخرة

٦ ـ نموذج من خط الوالد وأسلوبه في الكتابة

٧ ـ صورة غلاف «ثلاثة الأصول»

٨ ـ صورة لحكمة بخط الوالد

٩ ـ وثيقة لسبيل لجدنا حماد

١٠ ـ خطاب بخط العم عبدالله السليمان الحمدان



• نبذة عن المؤلف •

- ولد عام ١٣٤٤هـ في مدينة عنيزة في القصيم في المملكة العربية السعودية .
- جزء من دراسته الابتدائية بعنيزة وجزء منها والثانوية في مكة المكرمة .
- حصل على الليسانس من دار العلوم في جامعة القاهرة عام ١٣٧١هـ .
- حصل على الدكتوراة في التاريخ من جامعة لندن عام ١٣٨٠هـ .
- عيِّن في العام نفسه أميناً عاماً لجامعة الملك سعود .
- عيِّن وكيلاً للجامعة عام ١٣٨١هـ حتى عام ١٣٩١هـ .
- درَّس تاريخ المملكة العربية السعودية لطلاب كلية الآداب .
- انتقل منها رئيساً لديوان المراقبة العامة مدة عامين ثم وزيراً للصحة ثم وزيراً للمعارف .
- عيِّن في عام ١٤١٦هـ وزير دولة وعضواً في مجلس الوزراء .

مطبعة سفير : الرياض ☎ ٤٩٨٠٧٧٦ - ٤٩٨٠٧٨٠

• هذا الكتاب •

يرسم صورة لطفل يدب نحو الثالثة عشرة من عمره ، في مدينة عنيزة ، حياته مثل آلاف من الصبيان غيره ، وهذا الجزء هو واحد من ثلاثة أجزاء يؤمل أن تعطي صورة صادقة لحياة الصبيان في ذلك الزمن .



ردمك : ٩٩٦٠ - ٥٦ - ٠٦١ - ٩ (مجموعة)
٩٩٦٠ - ٥٦ - ٠٦٢ - ٧ (ج١)